ليلةٌ في عَرَقَة

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: ليلةٌ في عَرَقَة**

❖ **المؤلف: محمد عبد الرحمن شحاتة**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى 1443 هـ - 2022 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع: 11734 / 2022**

❖ **تدقيق: د. منى ياقوت**

❖ **الترقيم الدولي ISBN: 9789779944081**

❖ **الرقم الكودي في ببلومانيا: b21l78**

❖ مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 002026337855 - 00224769648

❖ محمول: 00201030504636 – 00201201001153 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

❖ **البريد الإلكتروني (E-Mail): bibliomania.eg@gmail.com**

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة ©

/bibliomania.eg

ليلةٌ في عَرَقَة

رواية

محمد عبد الرحمن شحاتة

بيبلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

www.bibliomaniapublishing.com

2022

جميع الحقوق محفوظة ©

الإهداء...

لَم نَخُض حربًا إلا وخرجنا منها والغنائم في أيدينا، وما مَشينا طُرقات غير ممهدةٍ إلا وجدنا لدينا القدرة على اجتيازها، إلى من يظنون أننا ضعفاء؛ لقد نضجنا فقط، وأصبحت لدينا أهداف لا تدركها أبصاركم.

المؤلف

محمد عبد الرحمن شحاتة

لَيلَةٌ في عَرَقَة

مُذ آخر مرَّةٍ كُنت هُناك قرَّرتُ ألا أعود مرَّةً أخرى، هذا ما قُلته لصديقي مُعتصم؛ لقد جئنا إلى الغربة من أجل لقمة عيش، وليس للمخاطرة بأنفسنا، ويكفي أنَّ ما حدثَ في المرَّة الأخيرة قد مرَّ بسلام.

لم يقتنع بحديثي، كان هَوَسُ المغامرة طاغيًا على شعوره بالخوف الذي كان من المُفتَرض أن يردعه عن ذلك الشيء، إنَّ ما حدث ليس بالأمر الهيّن، حينما تتعامل مع أشخاص ثم تتفاجأ أنهم ليسوا في هذه الدنيا شيء مخيف.

لقد بدأت الحكاية منذ أول يوم لي هنا، حينما قمتُ بالتعرّف على معتصم، ثم بدأ يحدّثني عن الغربة كي يساعدني في التأقلم معها، قال لي إن الحياة هنا معسكر للعمل، لكن في العطلات الأسبوعية نستطيع القيام بأشياء كثيرة من شأنها أن تُنسينا عناء ما نمرُّ به؛ لقد اعتقدتُ أنه سوف يقترح علينا الذهاب إلى البحر أو السينما، أو نلعب كرة القدم، مثلما يفعل

الناس في أوقات فراغهم، ولكنّي رأيت تفكيره يذهب إلى نقطة بعيدة، هو متيَّمٌ بقصص الرعب، ليس ذلك وحسب، بل يحبُّ أن يعيشها في الواقع، يعرف أماكن مهجورة هنا في الرياض، يقول الناس إنها مسكونة بالجن، يقضي فيها الليل عطلة كل أسبوع، ثم يقوم بتسجيل كل حركة أو صوت يحدث في هذه الأماكن.

داخل مستشفى عَرَقَة المهجورة قضيْنا عطلة الأسبوع الماضي؛ لقد كنتُ مضطرًّا إلى الذهاب مع معتصم، كان إحساس الغربة في بدايته قاتلًا، فلم يكن أمامي إلا أن أوافقه، ذهبنا في سيارته، دخلنا مبنى المستشفى الذي بدت الفخامة على هيئته الخارجية، أما من الداخل فيبدو أنها قد تعرَّضت إلى عمليات تخريب كبيرة، كل شيء محطم، النوافذ والأثاث والأبواب، حتى الغرف من الداخل، أسرَّةُ المَرضى والأجهزة الطبية كانت محطَّمة أيضًا.

أخبرني معتصم أن من قام ببناء المُستشفى هو رفيق الحريري، رئيس وزراء لبنان الأسبق؛ لقد قام بالتَّبرع بها إلى وزارة الصحة، إلا أنها لم تعمل حتى الآن؛ لعدم اكتمال الأوراق التي تثبت عملية التبرّع؛ لذلك قام ورثة رفيق الحريري برفض تسليم المستشفى إلا بعد أخذ ثمنها، وخاصة أن سعر الأرض مرتفع في هذه المنطقة، وبعد أن فشلت المفاوضات ظلَّ الأمر كما هو عليه، وأصبحت المستشفى مهجورة كما ترى، إن ذلك السبب

هو ما يعرفه الناس؛ لكن السبب الحقيقي كما أخبرني معتصم أن الجن هو السبب وراء تعطيل المستشفى؛ لأنه يسكن المكان من قبل بنائها.

ذهبتُ إلى هناك مرتين مع معتصم، أثار انتباهي ذلك الأمر فسألته: لماذا يكرِّرُ الذهابَ إلى المستشفى كثيرًا؟

أخبرني أنه يريد رصد أحداث غريبة يتوقع أنها ستحدث؛ لذلك يكرِّر المجيء إلى هنا؛ لكن في المرة الأخيرة حدث شيء غريب، دخلنا وفي أيدينا البطاريات الضوئية، لم يكن هناك شيء لافت للانتباه، تجولنا في الطابق الأرضي، ثم صعدنا إلى الطابق الأول، شعرت في هذه المرة أن الخوف الذي يتملكني قد تلاشى، رغبتُ في استكشاف المكان، ثم قال معتصم:

-سوف أسبقكَ إلى الطابق الثاني.

بعد أن صعد وتركني، صرخ قائلًا:

-تعال يا عليّ.

لمّا صعدتُ وجدته واقفًا في منتصف الممر، أمام غرفة كان بابها مواربًا، سألته عن سبب صرخته فقال:

-كان هذا الباب مغلقًا، أدرتُ ظهري لأنظر إلى الغرفة الأخرى، ثم سمعتُ صوتَ باب يُفتح، وحينما نظرتُ إليه مرةً أخرى، وجدته هكذا.

-رُبما يُخيَّلُ إليك.

-لم يكن تخيُّلًا أبدًا، كان الباب مُغلقًا بالفعل.

قرَّرنا دخول الغرفة، ثم اكتشفنا شيئًا غريبًا، كأن هذه الغرفة كانت في مبنى آخر، كل شيء فيها مُرتَّبٌ، ولولا الإضاءة المقطوعة عن المستشفى لظننا أن شخصًا ما يعيش هنا، أشعلنا البطاريات الضوئية فرأينا الغرفة جيدًا، السرير يبدو وكأن أحدًا قام بترتيبه للتو؛ لكن أغرب شيء رأيناه هو ذلك الكوب الممتلئ بالشّاي فوق الكومود بجانب السرير.

اقتربتُ من كوب الشاي الممتلئ، ثم قمت بملامسته فوجدته ساخنًا، لقد قام أحد ما بإعداد هذا الكوب للتو، من يا ترى الذي يعيش في ظلام مكان كهذا؟ وكيف لم نعثر عليه رغم أننا تجولنا داخل المستشفى كثيرًا؟

في صمت شديد، نظر معتصم إلى كوب الشاي، أعلم أن الأسئلة التي راودتني منذ لحظات تراوده الآن أيضًا؛ لكن قطع ذلك الصمت صوت الأقدام الذي ظهر في الممر، هناك

خطوات تقترب، ولمّا خرجنا مسرعين من الغرفة لم نعثر على أحد.

قال معتصم:

-هل سمعتَ صوت الأقدام؟

أجبته بالإيجاب، فقال:

-إذًا لم أكن أتخيَّل؛ لكن كيف وأين اختفى ذلك الشخص بهذه السرعة؟

-في رأيك، من الذي يعيش في مكان كهذا؟

-ربما شخص هارب من شيء، لم يجد أمامه سوى عَرَقَة ليختبأ فيها، يعلم تمامًا أن من المستحيل أن يبحث عنه أحد هاهنا.

ثم عدنا إلى الغرفة، وأصابتنا الدهشة حينما وجدنا كوب الشاي ليس في مكانه، لقد كان على الجانب الآخر من الكومود، غير أنه كان فارغًا، أخرج معتصم هاتفه، وقام بتسجيل فيديو لما حدث، ثم قال بعد أن انتهى:

-أعتقد أن تخميننا خاطئ، ليس شخصًا هاربًا هو من يعيش هنا، هناك كيان غامض خفي، من المؤكد أنه جِن.

-هل لازلت تعتقد في هذا؟ لقد جئت إلى هنا لأنفض عن ذهني ملل الغربة القاتل؛ وليس معنى ذلك أنّي أصدّق ما أسمعه منك.

-ألم تر بعينيك أن الكوب تحرك من مكانه، أصبح فارغًا؟

-لقد رأيتُ ذلك فعلًا.

-أخبرني إذًا من قام بعمل ذلك، ومتى، وكيف فعل ذلك دون أن نراه، أو نشعر به؟!

لم يكن لديَّ تفكير منطقي لما حدث، أعلم أنه ليست هناك أماكن مهجورة؛ لكن البعض يبتكرُ الأساطير كي يبعد الناس عن أماكن معينة، ثم بمرور الوقت تُصبح هذه الأساطير حقيقة، يصدقها الناس لمجرد أنها أصبحت شيئًا متداولًا؛ لكنّي الآن لا أنكر أن قناعاتي حول ذلك الأمر قد تغيّرت بعض الشيء.

قرَّرنا مغادرة المستشفى، أثناء نزولنا درجات السلم سمعنا نباح كلب في الطابق الأرضي، نظر معتصم ناحيتي بدهشة، فقلت:

-من الطبيعي أن يوجد كلب في مكان مهجور كهذا.

قام معتصم ببدء تسجيل فيديو جديد، تحسُّبًا لحدوث شيء أثناء خروجنا، كان نباح الكلاب يزداد حولنا دون أن نرى

شيئًا، ثم توقَّف النباح فجأة، فأغلق معتصم هاتفه قبل أن نغادر.

أوقفنا صوت غليظ عند خروجنا من الباب:

-ما الذي أتى بكما إلى هنا؟

كان صاحب الصوت رجل أمن يرتدي ملابسه الرسمية، أما عن ملامحه فقد كانت غاضبة، حاولنا استدراك الأمر كي لا يُبلغ الشرطة، بدأنا بالمزاح معه لكن وجهه ظل متجهّمًا، ثم طلب منّا أن نغادر المكان في الحال.

على الطريق بالقرب من المستشفى، أوقفنا كمين شرطة يطلب منّا هويّاتنا، قام الضابط بسؤالنا عن سبب تواجدنا في ذلك المكان في وقت كهذا، قصصنا عليه ما حدث، ثم أخبرناه أن رجل الأمن الذي يحرس المستشفى طلب منّا المغادرة في الحال، وألا نعود مرة أخرى؛ لكن الضابط صدَمَنا حينما أخبرنا أن مستشفى عَرَقَة مهجورة منذ زمن بعيد، ولا يوجد بها أفراد أمن.

لقد قام الضابط بتحذيرنا قبل أن يعيد إلينا هوياتنا، ويطلب منّا عدم تكرار هذه التجربة مرة أخرى، وصلنا إلى مسكننا قبل الفجر، حاولت أن أنسى ما حدث، تمددتُ فوق السرير

وأغمضت عيني في محاولة لنوم عميق، إلا أن صوت معتصم أفزعني، وهو يطلب منّي الاستيقاظ.

كان ينظر في هاتفه بوجه يملأه الرعب، لمّا سألته عن سبب خوفه قال:

-تعال وشاهد الفيديو.

-عن أي فيديو تتحدث؟

-الفيديو الذي قمنا بتصويره في الطابق الأرضي أثناء سماعنا نباح الكلاب، قبل أن نغادر المستشفى.

أذكر أننا سمعنا نباح الكلاب فعلًا، وهذا أمر طبيعي أن تتواجد الكلاب في مثل هذه الأماكن، جلست بجانبه ثم أمسكتُ بهاتفه، شاهدت الفيديو من بدايته بعد أن قمت برفع درجة الصوت، كان نباح الكلاب واضحًا؛ لكن ما أرعبني هي تلك العجوز التي ظهرت فجأة في الفيديو، لقد كانت أمامنا دون أن نشاهدها، ملامحها مرعبة مثيرة للذعر، تحيط بها بعض الكلاب، كانت تصرخ في وجهنا، وهي تقول:

-غادرا من هنا، لقد أزعجتما كلابي!

سقطَ الهاتف من يدي، ثم نظرت إلى معتصم وقلت:

-لم أرَ تلك العجوز هناك، فهل رأيتها أنت؟

-لقد تفاجأت بها في الفيديو، مثلك تمامًا.

-في رأيك ما تفسير ذلك؟

-أنا مؤمن جدًا بالماورائيات، هناك من يعيشون معنا، يحيطون بنا، ولكنهم خارج نطاق حواسنا واستيعابنا، تحدُّهم أبعاد أخرى غير الأبعاد التي نحيا داخلها؛ لكنها قد تمنحك الفرصة كي تكتشفها وتتواصل معها إن أرادت؛ لديها قدرة تجعلها تدخل إلى أبعادنا فتظهر أمامنا فجأة وتختفي، أو ربما تظهر أمامنا في لقطة كاميرا، أشياء من هذا القبيل، لقد كانت العجوز موجودة بالفعل، تنظر إلينا وتتحدث، لكننا بحواسنا المحدودة لم نستطع رؤيتها أو سماعها، لكن قامت الكاميرا بذلك، إنها المرة الأولى التي أقوم فيها بالتقاط حدث غريب في مستشفى عَرَقَة، لم تذهب محاولاتي هباءً.

أعاد معتصم تشغيل الفيديو مرة أخرى، في تلك المرة لم يكن به غير نباح الكلاب فقط؛ لقد اختفت العجوز، نظر ناحيتي بذهول فقلت:

-يبدو أن ما حدث تحذير، من يسكنون المكان غير راغبين في زيارتنا مرة أخرى.

مرَّ الأسبوع بما فيه من ملل اعتدنا عليه، عدتُ من عملي، إنها ليلة عطلة نهاية الأسبوع، بمجرد أن رآني معتصم قال:

-إذا كنتَ جائعًا فَكُل سريعًا، علينا أن نذهب.

قلتُ مستفسرًا:

-نذهب إلى أين؟

-عَرَقَة.

-هل تمزح يا معتصم؟ ألم يكفكَ ما حدث في المرة الماضية؟!

-هل تريد منّي عدم الذهاب إلى هناك بعد أن حدث ما كنت أنتظره؟

-وإذا حدث لنا شيء هناك؟ وحتى لو لم يحدث شيء، ماذا إذا أمسك بنا الضابط هذه المرة؟

-لن يحدث شيء، أما عن الضابط فمن الممكن أن نترك السيارة بعيدًا، ونتسلل إلى المستشفى على أقدامنا.

-لن أذهب إلى هناك مرة أخرى.

لم يجادلني معتصم، وضع حقيبته على كتفه وأمسك بهاتفه وتركني، انتظرتُ عودته عند الفجر كعادته؛ إلا أن هذه المرة خاب ظنّي؛ لقد عاد بعد وقت قصير، رأيت العَرَق يغرق وجهه وملابسه، وسمعت أنفاسه مرتفعة، وكأنما يحمل جبلًا

فوق أكتافه، حاولت معرفة ما حدث، وما سبب ذلك الخوف الذي يعتريه؛ لكنه كان يفتقد القدرة على النطق.

لم يكن أمامي إلا أن أمسك هاتفه وأقوم بتصفّحه، هناك فيديو جديد، لمّا فتحته لم يظهر فيه شيء سوى الظلام؛ لكنّي سمعت خطوات تركض في المكان، وسمعت أُناسًا يتكلّمون، ثم تحول الكلام إلى صرخات، ثم سمعت صوت معتصم وهو يستغيث، بعدها حدث تشويش في الفيديو فلم أفهم شيئًا، ويبدو أنني لن أفهم إلا إذا أخبرني معتصم.

أيام طوال، ظل فيها معتصم على نفس الحالة، لم تتحسّن صحّته مُطلقًا، بل كانت تزداد سوءًا، بعد فحوصات كثيرة أجراها تأكدنا أنه مُصاب بالصّرع نتيجة (Brain contusion) كدمة في الدماغ.

يا ترى ما الذي يمكن أن يصيبه بكدمة في الدماغ؟

لم يكن هناك سوى تفسير وحيد لذلك التشويش الذي طرأ على الفيديو ولصوت معتصم وهو يستغيث، من المؤكد أنه قد تعرَّض لاعتداء عنيف، على الأرجح من كيان غامض ربما الجِن، رُبما أسقطه ذلك الاعتداء على رأسه فاصطدم بشيء، لكن الكارثة أنه لا ينطق، وما أعرفه عن الصرع أنه لا يمنع المريض من الكلام، فحينما تنتهي نوبة الصرع يعود المريض طبيعيًّا،

يتذكَّر ويحكي؛ لكن حالة معتصم كانت مختلفة تمامًا، إنه ينظر ناحيتي في صمت، بينما عيناه تفصحان عن خوف دفين.

بمرور الوقت؛ لاحظت أن عينا معتصم تحدّقان في نقطة بعينها، غالبًا في ركن الغرفة المقابل لسريره، ورأيته يحاول الكلام لكنَّ شيئًا ما يُمسك بلسانه ويكبح جماحه، هذه المرّة دقَّقت في تلك النقطة التي يحدِّق بها، رأيته يُشير بيده نحوها، في ذلك الركن من الغرفة يوجد حوض لأسماك الزينة، فلاحظت أن للأسماكِ سلوكًا غريبًا، وكأنها كانت تفرُّ من شيء ما.

منذ ذلك الحين وبدأت أشعر بأن الغرفة غير مُريحة، يغمرني شعور أن أحدًا ما يراقِبُنا، هُناك نَفسٌ آخر غير أنفاسي أنا ومعتصم، ذهبت لإطفاء الضوء لأن النوم على وشكِ أن يغلبني، فأمسك بي معتصم وأبعدني عن مفتاح الكهرباء، فهمتُ أنه لا يريد أن يجلس في الظلام، عدتُ إلى سريري، بينما عاد إلى تحديقه في ذلك الركن المُعتاد.

جذبني النوم عنوةً، بعد وقت قصير شعرتُ بما يُشبه الجاثوم، أنا مُستيقظ، ولكني لا أستطيع فتح عينيَّ، ولا أقوى على الحركة، شيء ثقيل يطبق على صدري، أنفاسي تتباطأ؛ لقد جرَّبتُ الجاثوم كثيرًا، منذ سنوات لم يراودني ذلك الشعور القاتل، لكنه يحدث الآن ولا أعرف السبب وراء ذلك، في كل مرة كان يراودني فيها كنت أحاول قراءة آية الكُرسي، وحينما أتمكّن

من قراءتها ينتهي ذلك الشعور القاتل، الأمر مختلف هذه المرة، أنا لا أذكر كلمات آية الكرسي، ظل الخوف ينهش كل خلية في جسدي حتى وجدت نفسي جالسًا فوق السرير، ورأيت العجوز التي شاهدتها في تسجيل الفيديو تقف بالقرب من حوض الأسماك، تصرخ في وجهي بملامحها المخيفة، وتقول:

-ما أخذه صاحبك لعنة، لا بُد أن يعيده، أخبره أنه اختار نهايته، إن ما يحدث له الآن بداية هلاكه.

استيقظتُ خائفًا أحاول التقاط أنفاسي، رأيت وجه معتصم وقد تحول لونه إلى الأحمر بينما انتفخت عروق جبهته، ناولته كوب ماء كي يشرب، ارتشف منه رشفة، ثم أشار بيده إلى رقبته، حاول أن يخبرني أنه يختنق.

لمّا هدأ وجهه سألته، وأنا أعرف أنه غير قادر على الكلام:

-هل أخذت شيئًا من عَرَقَة حينما ذهبتَ إلى هناك في المرة الأخيرة؟

تفاجأت أنه يُجيبني بصوت مبحوح غير واضح:

-جَوهرة، وجدتُ هناك جوهرة.

-وكيف عثرت عليها في ظلام المستشفى؟

-وجدتها تلمع في الفيديو أثناء التصوير.

-أين هي؟

أشار بيده عند نهاية سريره، وهو يقول:

-الحقيبة.

فتحتُ حقيبته وقمتُ بتفتيشها، إن ما أخذه معتصم من المستشفى حجر زمرد بيضاوي الشكل، محفور فيه نقوش غريبة، حينها قلت:

-إذًا ذلك الحجر هو سبب ما أنت فيه، إن صاحبة الحجر قد جاءت إلى هُنا كي تستعيده.

قال والدهشة تعتري وجهه:

-مَن صاحبة الحجر؟

-العجوز التي ظهرت في الفيديو، لقد جاءتني في كابوس منذ قليل، كانت تقف بجانب حوض الأسماك، وأخبرتني بما أخبرتك به، من أين لي أن أعرف أنك قد أخذت شيئًا من المستشفى؟

لابد أن نُعيد ذلك الحجر.

لم ننتظر عطلة الأسبوع القادمة، طلبت من معتصم أن يأتي معي إلى مُستشفى عَرَقَة، قُدتُ السيارة ولم أكن قد حصلت على رخصة قيادة بعد، فلم تسمح حالة معتصم بالقيادة، كانت

رغبتي في إنهاء الأمر أكبر من خوفي من أي مخاطر قد تحدث أثناء طريقنا.

أوقفتُ السيارة في مكان بعيد، ثم أكملنا الطريق سيرًا كي لا ينتبه إلينا أحد أفراد الكمين القريب من المستشفى، حينما اقتربنا من باب المستشفى سمعنا نباح الكلاب في الداخل، دخلنا ونحن نُشعل بطارياتنا الضوئية، ثم قلت لمعتصم:

-من أي مكان أخذت ذلك الحجر؟

قال بصوته المبحوح:

-أذكر أنني كنت أقف في هذا المكان أقوم بتصوير فيديو، حينها وجدت الحجر يلمع، وحينما مددتُ يدي كي التقطه أمسكت بقدمي يد، أسقطتني وحاولت أن تسحبني، ولكني استطعت الفرار بالحجر في النهاية.

تفاجأت بالعجوز تقف أمامنا تحيط بها كلابها، والغريب في الأمر أن حول رقبة كلابها أطواق حديدية بها حجر زمرد أخضر، نفس الذي كنت أحمله في يدي، فيما عدا كلب وحيد، كان طوقه بلا حجر، فعلمت أن الحجر الذي أخذه معتصم يخص طوق ذلك الكلب.

كانت رهبة الموقف أكبر من تصرّفي، راودتني فكرة أن أُلقي بالحجر ثم نغادر؛ لكنَّ العجوز قامت بتحذيري من أن أفعل ذلك، لقد كانت تقرأ أفكاري، ثم أكملت تحذيرها وهي تقول:

-ما بين عالمنا وعالمكم بوابات مغلقة؛ لكن فضولكم يُلقي بكم إلى الهلاك، أنتم من تحاولون فتح هذه البوابات، رغم أنه لا طاقة لكم بذلك العالم الذي تحاولون اكتشافه؛ لقد سقط الحجر من طوق الكلب حينما اصطدم به صاحبك، وهو لا يعلم أن الكلب كان نائمًا في المكان الذي يسير فيه، وحينما سقط الحجر وانفصل عن جسد الكلب ظهر في عالمكم فانتبه إليه صاحبك، حاولنا منعه من الاستيلاء عليه لكنه استطاع الفرار، لم يعلم أنه بذلك قد وقَّع على تصريح بهلاكه.

قلتُ بصوت يغمره الخوف:

-سأعيد الحجر.

ضحكت ضحكة مخيفة، ثم قالت:

-لكن ذلك لن يغيّر من مصير صاحبك، دع الحجر عند قدمِك، فقد سقط هنا من طوق الكلب، واحمل صاحبك وغادرا، ثم أخبر صاحبكَ أن يعود إلى بلده، إن هلاكه هناك سيكون أرحم بكثير من هلاكه في الغربة.

أسندته إلى كتفي وخرجت، كانت حالته تزداد سوءً بمرور الأيام، تضربه نوبات الصرع بشكل متكرر، حتى أخبرنا أحد الأطباء أنه لا بد وأن يعود إلى بلده، إن حالته تتدهور بشكل كبير، فإذا حدث -لا قدّر الله- ومات، فلا يكون ذلك في غربة.

لقد وافق معتصم على رأي الطبيب، أخبرني أنه سوف يعود إلى بلده في أقرب وقت، ثم أخبرني بالكابوس الذي بدأ يراوده في الفترة الأخيرة، قال إنه يرى نفسه، وهو يسقط من مكان مرتفع، ويرى نفسه وهو يُدفَنُ في قبر تجلس فيه عجوز مخيفة، وأن ذلك المصير ينتظره ولا مفرَّ منه.

مرَّت الأيام وتبدَّل مكان عملي، وكأن القدَرَ قد فعل ذلك؛ لقد أصبحت أمرَّ من أمام مستشفى عَرَقَة أثناء ذهابي وعودتي من العمل.

كُنت أتابع أخبار معتصم بين الحين والآخر بعد أن عاد إلى بلده، عرفت أن نوبات الصرع لم تتوقف، بل ازدادت بمرور الوقت، لم يترك أقاربه طبيبًا ولا معالجًا روحانيًّا إلا وقد ذهبوا إليه، كان رأي الأطباء أن كدمة الدماغ هي من سببت له ذلك، وأن نوبات الصرع غالبًا لن تنتهي، أما رأي أحد المعالجين الروحانيين أنه قد حُكِمَ عليه بالصرع الأبدي بعد أن اقتحم عالمًا لا طاقة له به، ثم استولى منه على شيء كان يجب ألا يقترب منه.

حتى جاءت ليلة، كنتُ عائدًا من عملي في وقت متأخر، لسوء الحظ تعطلت بي السيارة أمام مستشفى عَرَقَة، ترجّلت كي أرى العطل الذي قد أصابها، فحصت كل أجزائها فلم أعثر على سبب للعطل، حينها سمعت صوتًا يقول:

-يا عليّ، يا عليّ.

لم يكن ذلك الصوت إلا صوت معتصم، كان يأتي من مبنى المستشفى، نظرت نحو المبنى فإذا بمعتصم يقف فوق سور السطح، وكأن شيئًا خفيًّا قام بتثبيته هكذا، ثم رأيته يسقط من ذلك الارتفاع ويصطدم بالأرض، ذهبت مسرعًا حيث المكان الذي سقط فيه، ولكني لم أعثر له على أثر.

عدتُ إلى السيارة، حاولت تشغيلها فاكتشفت أنها خالية من الأعطال؛ لقد دارت وكأن الخلل الذي أصابها لم يكن، دُهِشتُ لماذا حدث ذلك، ولماذا هُنا تحديدًا؟

وجدت في نفسي رغبة تدفعني كي أطمئن على معتصم، طلبتُ رقمه عدة مرّات حتى فُتحت المكالمة، حينها سمعتُ صرخات مخيفة، وجاءني صوت يقول باكيًا:

-مُعتصم مات يا علي؛ لقد ألقى بنفسه من فوق السطح.

أغلقت المكالمة دون أن أردَّ على الخبر الذي سمعته، ألجمتني الصدمة حتى منعتني من تصديق الخبر، أحقًّا أوقفني القَدَر هنا كي أرى نهاية معتصم بعيني؟

تحرَّكت بالسيارة وأنا أدعو لمعتصم بالرحمة، واتخذت قرارًا أنّي لن أمر من ذلك الطريق مرة أخرى، وخاصة حين رأيت في مرآة السيارة بعد أن تحركت تلك العجوز، كانت تقف على الطريق ومن حولها كلابها تنظر نحوي، وأمامها جثة معتصم ممددة فوق الأرض!

***

عنبر الولادة

ليلتها وضعت مولودي الأول، ثم أودعوني حجرة المتابعة لسوء حالتي، سأمكث ها هنا ما يقرب من أسبوع، هكذا قال الطبيب.

أمي وهي كبيرة في العمر كانت مرافقتي، ولحسن الحظ أن عنبر الولادة حينها لم يكن مزدحمًا، لذلك كان السرير المقابل لسريري في الغرفة التي أودعوني بها شاغرًا، لتجلس عليه أمي وهي تتابعني لحظة بلحظة.

أثناء نقلي إلى حجرة المتابعة، كنت قد بدأت في استرداد وعيي قليلًا؛ لقد ذهب مفعول المخدّر وبدأت أشعر بوخز جرح الولادة وآلامه، لكن ذلك لم يمنعني من الاحتفاظ بصورة، ولو مشوشة عن العنبر.

فوق نقّالة المرضى، دفعتني ممرضة بدينة عبر ممر طويل، صرير عجلات النّقالة كان مرتفعًا، أثار انتباهي رغم أني لم أفق

تمامًا من المخدّر، كانت عيناي المشوشتان تنفتحان بصعوبة، ذلك لأن بجانب تأثير المخدّر كانت الإضاءة البيضاء في السقف، تصفعهما كلما مررنا أسفل لمبة.

أبواب الغُرَف التي نمر أمامها كانت مفتوحة ومظلمة من الداخل، دفعتني الممرضة حتى آخر غرفة في الممر، أدخلتني إليها فوجدت أمي في انتظاري، اتكأت عليهما كي أستطيع النزول من فوق النقّالة والتمدد فوق السرير، لا أعرف لماذا أودعوني الغرفة الأخيرة من الممر، رغم أن كل غرف العنبر كانت شاغرة، هكذا رأيت.

خرجت الممرضة وهي تجرُّ النّقالة، ثم أوصدتِ الباب خلفها، جلست أمي بجانبي تجفف قطرات العرق التي تنبت فوق جبهتي، سألتها عن طفلي فأخبرتني أنه في الحضّانة، أغمضت عيني لمّا شعرت بدوران في رأسي، ثم قامت أمي بإغلاق نافذة الغرفة التي تطلّ على مساحة يغمرها الليل، وأشجار الكافور.

لم أسمع صوت خطوات في الممر، ولا صوت باب يُفتح أو يُغلق، سوى باب غرفتنا الذي دفعته ممرضة غير تلك التي أتت بي إلى هنا، تحمل في يدها زجاجة محلول قامت بتعليقها في الحامل المُثبّت بجواري وإيصالها بالكانيولا التي في يدي، سمعت أمي تسألها:

-هل أنتِ معنا هذه الليلة؟

أجابت، وهي تُكمل ما أتت من أجله:

-أنا نوبتجية هنا الليلة.

جرَّت أقدامها مغادرةً الغرفة ثم أوصدت الباب، وقفت أمي أمام النافذة الزجاجية المغلقة تتأمل الليل في الخارج، ساد صمت رهيب، أشجار الكافور العالية تتمايل بهدوء كلما دفعها الهواء بين الحين والآخر، قالت وهي تنظر إلى الليل يحكم قبضته على الدنيا:

-في السابق كان قسم الولادة في أول المستشفى، لا أعرف لماذا قاموا بنقله إلى هنا، أشعر وكأننا في مكان مقطوع، لا شيء غير حديقة المستشفى والسور الذي يحيط بها، والأراضي الزراعية على امتداد البصر والتي تبدو ككتلة مظلمة في الليل.

لم أعلّق على ما قالته أمي، كل ما استحوذ على تفكيري هو طفلي الذي لم أره، ووخز جرحي الذي اشتدّ منذ أن أرخيت جسدي فوق السرير، أغضمت عيني مرةً أخرى فظنّت أنني نائمة؛ لذلك تركت النافذة وتمددت هي الأخرى فوق السرير المقابل لسريري، وبعد فترة قليلة من الصمت، سمعت أنفاسها وهي تعلو بعد أن غاصت في يمٍّ من النوم.

أيقظنا طرق خفيف على الباب، قامت أمي من نومها، وحاولت أن أرفع رأسي كي أرى من سيفتح الباب ويدخل، ولكن شيئًا لم يحدث، عاد الطرق مرة أخرى، نظرت إلى أمي فقالت:

-ربما هي الممرضة.

قلت بصوت خافت من شدة الإعياء:

-ولماذا تستأذن الممرضة في الدخول؟

قامت أمي واقتربت من الباب، سألت بصوت حذر، وهي تمسك بمقبض الباب عمن بالخارج، لم يأتها رد، عاد الطرق للمرة الثالثة ففتحت الباب قليلًا، نظرت إلى من بالخارج ثم قالت:

-تفضّلي.

دخلت بقميصها الأبيض، وطرحتها البيضاء التي تفصح عن منبت شعرها الأكثر سوادًا من الليل، وبوجهها الأبيض المفعم بالحُمرة، لاحظت أنها ترتدي نفس قميصي وطرحتي، فعرفت أنها إحدى نزيلات عنبر الولادة، سلّمَت على أمي، فبادلتها السلام وزادت عليه قُبلتين، هكذا هم الأمهات دائمًا، ثم اصطحبتها حيث تلك المسافة بين السريرين، ربتت على صدري وقالت:

-حمدًا لله على سلامتك، أنا انتصار.

جاهدتُ في رد تحيتها، فأردفت:

-لا ترهقي نفسك، لم تعد إليكِ عافيتك بعد.

قطعت أمي حديثها بسؤال مفاجئ:

-وأنتِ يابنيّتي، منذ كم يوم وضعتِ مولودكِ؟

قالت مبتسمة:

-منذ ثلاثة أيام فقط، أنا في الغرفة المجاورة لكما.

قالت أمي بفطرتها المعهودة:

-الحمد لله على سلامتك.

جَلَسَت فوق السرير بجوار أمي، أخذهما الحديث عن أشياء كثيرة، عنبر الولادة القديم قبل أن ينقلوه إلى المبنى الأخير من المستشفى، أشجار الكافور التي تتمايل في الخارج، حتى عن لحظاتها الأولى قبل دخولي غرفة العمليات والخوف الذي كان يعتريها، تحدَّثت أمي معها وكأنها تعرفها منذ سنوات طويلة، كنت أستمع ولا أعقّب، فما يسري في جسدي من ألم يعتصرني كان كفيلًا أن يجعلني أصمت.

دخلت الممرضة دون أن تطرق الباب، حينها علمت أنها الثانية صباحًا، ذلك هو موعد أخذ المُسكّنات قبل أن تنفد قدرتي على تحمل الألم، قامت انتصار واقتربت منّي، ربتت على صدري وهي تعدني بالمجيء مرة أخرى للاطمئنان على حالتي، تعجَّبت لمّا رأيتها تسير بكل طاقتها وكأنها لم تحمل جرحًا في بطنها كالذي يفقدني القدرة على الحركة، لقد وضعت طفلها منذ ثلاثة أيام بحسب ما قالت؛ لذلك فإن جرحها لم يلتئم بعد حتى تسير هكذا وكأنها لا تشعر بشيء، ربما هناك أناس أقوياء لهم قدرة عالية على احتمال الألم وتجاهل الإحساس به.

أوقف جريان تفكيري مزاح الممرضة مع أمي، مذ دخلت وهي لم تكف عن الحديث معها، حتّى أنها قالت نكتة فجلست أمي فوق السرير من شدة الضحك، وكتمتُ ضحكتي كي لا تزيد من ألمي فتنقلب إلى صرخات، لكن ما أثار انتباهي، هو تجاهل الممرضة الغير مبرر لانتصار قبل أن تغادر الغرفة!

أنهت الممرضة متابعة حالتي وانصرفت، بعد أن أغلقت الباب سمعت خطواتها في الممر الخارجي وهي تبتعد، ثم طغى السكون مرة أخرى، وقفت أمي تنظر من النافذة الزجاجية إلى الظلام وأشجار الكافور الصامتة، ثم أفزعنا وابل من الصرخات التي جاءت من الممر.

كانت صرخات عالية، ومخيفة، صادرة عن امرأة ما تستغيث، الممر أيضًا قام بدوره، فقد قام بتضخيم الصرخات إلى الدرجة التي جعلتني أستند إلى ذراعيَّ رغم الألم وأنا أحاول الجلوس، وجعلت أمي تسير ناحية الباب وتُنصت بأذنيها للخارج، ثم فتحت الباب وخرجت إلى الممر، ثم عادت دون أن تجد شيئًا.

عادت أمي، كنت لا أزال أستند إلى ذراعيَّ أنتظر ما سوف تخبرني به، لمّا أغلقت الباب قلت:

-من التي تصرخ؟

قالت أمي وهي تجلس فوق السرير:

-لا أحد، حتى أنني حاولت فتح باب غرفة انتصار كي أطمئن عليها فوجدته مغلقًا بالمفتاح، ربما نامت وأغلقت الباب من الداخل.

أرحت ظهري فوق السرير مرة أخرى، وأنا أقول:

-ربما هناك من تستعد للولادة، وتعاني آلام الطلق.

أطفأت أمي النور واستلقت فوق السرير، الآن تتساوى الغرفة في الظلام مع المنطقة الخالية التي تطل عليها النافذة الزجاجية، فيما عدا بصيص ضوء شاحب يتسلل من الفراغ

الضئيل الذي يتركه باب الغرفة من الأسفل، سمعت أنفاس أمي تعلو مرة أخرى، جذبها النوم سريعًا كعادتها، أبقيت عينيَّ مفتوحتين بعد أن شعرت بوخزات الجرح تتضاءل، فكّرت في طفلي الذي ينام الآن في قسم آخر، بمجرد أن أقوى على السير سأذهب إلى الحضّانة لأحتضنه.

صوت أقدام تهرول في الممر بالخارج، وأصوات متداخلة ببعضها تحثُّ الناس على الإسراع بالمغادرة، انتظرت أن يطرق أحد باب غرفتنا ويطلب منّا أن نغادر، لكن لم يقترب أحد من غرفتنا، تُرى ماذا يحدث؟

لو أن أمي مستيقظة لخرجت تستطلع ما يدور، حاولت إيقاظها دون جدوى، لقد سلبها التعب قدرتها على الاستجابة السريعة.

لازالت الأقدام تهرول، والأصوات تتداخل، لم يكن هناك جديد سوى أن عادت الصرخات مرة أخرى، فازداد الأمر غموضًا، وازددتُ خوفًا.

سمعتُ صوت مقبض الباب وهو يدور، ثم صريره ويد تدفعه ببطء من الخارج، كانت عيناي شاخصتين تترقبان من سيدخل، في ظلام الغرفة الذي يغمر الأركان لمحت يدًا تتسلل من فتحة الباب الصغيرة، ثم تتجه صوب الحائط المجاور له

كي تضغط زرَّ الكهرباء، أضاءت الغرفة ودخلت انتصار، حينها لم أسمع شيئًا بالممر مما كنت أسمعه.

هدأتُ قليلًا لما رأيتها تدخل بوجهها المبتسم، عاودت التقاط أنفاسي بأريحية، ربتت على صدري ثم اقتربت من سرير أمي النائمة لتجلس على حافته، سألتها:

-ما هذه الضوضاء؟

قالت بوجهها المبتسم:

-إنه شيء معتاد كل ليلة.

-وماذا يحدث كل ليلة؟

-لا شيء، كل ما في الأمر أن الأوان قد فات.

سألتها وعلى وجهي دهشة:

-أوان ماذا؟

قالت وهي تهمُّ بالقيام:

-لا تشغلي بالك، اهتمي بصحتك فقط.

أغلقت الباب خلفها بهدوء بعد أن أغلقت زر الكهرباء، فعادت الغرفة إلى ما كانت عليه من ظلام، وما إن غادرت حتى عاد ما كنت أسمعه في الممر، بقيت هكذا أستمع إلى ما يدور في

الخارج وأنا أنظر لأمي النائمة على السرير المقابل، استدرت برأسي قليلًا فرأيت السماء من النافذة الزجاجية، لازالت مظلمة، ثم لم أشعر بعد ذلك بشيء.

أزعجني ضوء الشمس، وهو يخترق زجاج النافذة فاستيقظتُ، كانت أمي واقفة بجوارها تنظر إلى حديقة المستشفى والأراضي الزراعية الممتدة على مساحات شاسعة، لمّا انتبهت إليَّ اقتربت، ربتت على صدري، وهي تقول بصوت حنون:

-صباح الخير.

قلتُ:

-صباح النور.

ثم استدارت ناحية سريرها وأزاحت عن طبق صغير غطاءه، كان به ربع دجاجة مسلوقة، حملته وقرَّبته منّي وهي تقول:

-لابدَّ أن تأكلي.

أبعدتُ يدها رافضة، لم أستعد شهيتي بعد، جادلتني وانتزعت قطعة صغيرة من الدجاجة كي تدسها في فمي وهي تحاول إقناعي، أبعدتُ يدها مرة أخرى، ظللنا نتجادل حتى دخل الطبيب برفقته ممرضة لم أرها من قبل، اطمأن على حالتي

ودوَّن بعض ملاحظاته في التقرير الذي يحمله، بعدها دخلت الممرضة البدينة التي دفعت النقّالة وأودعتني تلك الغرفة، أوصاها الطبيب ببعض الإجراءات التي تستلزمها حالتي ثم انصرف.

لم أسمع صخبًا في الممر الخارجي طوال اليوم، عكس ما يجب أن يحدث، فقط بعض الزائرين الذين أتوا للاطمئنان على حالتي، قلتُ لأمّي:

-لماذا لا يزور أحد غرفة انتصار؟

لم تهتم أمي لسؤالي، طالبتني ألا أفكر إلا في صحتي، دخلت الممرضة لتنفّذ التعليمات التي أوصاها بها الطبيب، أنهت ما أتت من أجله ثم غادرت، وتمددت أمي فوق سريرها، بعد أن يئست من محاولات إقناعي لتناول الطعام.

مرَّ اليوم هادئًا، وأخذ النهار يتلاشى تاركًا السماء في قبضة الليل، لم يكن هناك سوى مجيء الممرضة بين الحين والآخر، ثم انتبهنا إلى صوتها وهي تتحدث إلى ممرضة الليل أثناء تسليم النوبتجية، ثم تذكرت عدم مجيء انتصار طوال اليوم، نظرت إلى أمي التي تجلس محملقة في ظلام النافذة، وقلت:

-لم تظهر انتصار اليوم.

قالت أمي:

-ربما غادرت المستشفى.

كانت الساعة قد تعدّت الواحدة صباحًا، وكان الظلام يحكم قبضته على الغرفة بعد أن أطفأت أمي النور واستسلمت للنوم ظنًّا منها أني نائمة، حينها عادت الصرخات في الممر خارج الغرفة، وعاد دبيب الأقدام.

سمعتُ صرير باب الغرفة وهو يُفتح ببطء شديد، ظلَّ الباب يُفتح حتى فُتِحَ عن آخره تمامًا دون أن يكون هناك أحد أمامه، تخشَّبتُ في مكاني، وأنا لا أستطيع أن أبعد عينيَّ عن الباب، لا أعرف أين ذهبت قدرتي على الكلام فأصرخ في أمي كي تستيقظ، لم تمر ثوانٍ حتى انطفأ نور الممر وأصبح المكان مساحة شاسعة من الظلام، حينها رأيت بالباب ما يشبه عينيَّ قط مضيئتين.

تجمَّدتُ في مكاني وأنا أنظر لهاتين العينين المضيئتين، أحسست ببرودة تسري في أطرافي، حاولت تحريك أقدامي فلم تنصفني قوّتي، وما زاد من هلعي هو أنني رأيت العينين تقتربان منّي ببطءٍ، أو ربما خوفي هو من هيّأ لي ذلك.

لا، لم تكن تهيؤات، لقد كانتا تقتربان منّي فعلًا، وبعد وقت لم أدر كم هو أصبحتا قريبتين من سريري، أحسست بأنّي قد أمسك بهما إذا مددتُ يدي، لكنني لم أجرؤ على فعل ذلك.

من الباب الذي لازال مفتوحًا على الممر، تسرَّب ضوء أحمر ممزوج بالدخان، ظلَّ يتسرَّب إلى الغرفة حتى امتلأت واستحال ظلامها إلى ضوء أحمر تتخلله خيوط الدخان التي تتلاشى لتحل مكانها خيوط أخرى، عاودت النظر إلى العينين القابعتين بجانب سريري لتصيبني صاعقة صرخت على إثرها، لكنها صرخة لم توقظ أمّي الغائبة في عالم النيام.

لمّا كسرَ الضوء الأحمر عتمة الغرفة، رأيت العينين القابعتين بجانب سريري بوضوح، لقد كانتا عينيَّ انتصار، تنظران نحوي في ثبات مخيف، وتتوسطان رأسًا أشعث الشعر يتحرك فوق الأرض دون جسد، ثم لم يمضِ وقت طويل حتى رجع الرأس إلى الوراء ببطءٍ كما جاء، ظلَّ يتراجع نحو الباب إلى أن خرج منه إلى الممر، باتجاه غرفة انتصار.

أُغلِقَ الباب من تلقاء نفسه، وتلاشى الضوء الأحمر والدخان واستوحشت العتمة، واستوحش الخوف بداخلي، أحسست بقطرات العرق الباردة تبلل وجهي حينما فُتِحَ الباب مرة أخرى، لكن تلك المرة كانت ممرضة الليل هي التي دخلت لمتابعة حالتي حسب المواعيد التي حددها الطبيب، ضغطت زرَّ الكهرباء فأنارت الغرفة، واستيقظت أمي التي جلست بجواري تجفف عرقي الذي لم تكن تعرف سببه.

قالت أمّي للممرضة، وهي تسجّل بعض البيانات في ورقة المتابعة:

-لماذا تتعرّق هكذا؟

قالت الممرضة دون اكتراث:

-ربما هبوط، لابدَّ أن تأكل.

أومأت أمّي برأسها، وهي تعلّق على حديث الممرضة:

-هي لم تأكل فعلًا.

حينها دخلت انتصار وجلست بجواري، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أرى تجاهل الممرضة لها، رغم أني رأيت عين انتصار تقع عليها كثيرًا، ورغم أن أمي قابلت مجيء انتصار بالترحيب، إلا أنها لم تنظر إليها ولم تردّ تحيتها أو تبادلها كلمة واحدة، قلتُ ربما قد اختلفتا من قبل أو تشاجرتا، لكن ماذا بين مريضة وممرضة؛ ليحدث بينهما ما يمنعهما تبادل التحية؟

كان ذلك هو اليوم الثالث لي، والسادس لانتصار حسبما قالت منذ ثلاثة أيام لأمي، لم تأتِ إلى غرفتنا وهي تحمل طفلها قط، كذلك لم تزُرني في الصباح، كانت زيارتها دائمًا في الليل، وأذكر الآن أنها علَّقت على الصرخات التي أسمعها كل ليلة في الممر بأن ذلك هو المعتاد، لقد حاولت أمي أن تفتح غرفتها أكثر

من مرة، لكنها كانت دائما ما تجدها مغلقة، وكنت أفسّرُ ذلك بأن طفلها قد يكون في الحضَانة وتقضي النهار بجانبه، والآن ينتابني خوف شديد، لم تغب صورة الرأس التي تشبه انتصار إلى حد كبير من أمام عيني، ولم تذهب نظراتها المخيفة التي كانت تتربص بي منذ وقت قصير عن بالي.

كانت انتصار تجلس بجوار أمي تتبادلان الضحكات، دار بينهما حديث لم أنتبه إليه، لقد جذبني التفكير في أمر انتصار إلى بُعدٍ آخر، وسألت نفسي سؤالًا، لماذا رأيت الرأس التي أظهرها الضوء الأحمر بجوار سريري شبيهًا بوجه انتصار؟

بل كانت هي انتصار بكامل ملامحها، لقد نزعت غطاء رأسها ذات مرة، وهي جالسة فبدا شعرها نفس الشعر الذي يكسو الرأس، لماذا جاء الشبه بينهما متقاربًا حدَّ التطابق، أم أنّ انشغال ذهني بها هو ما جعل عقلي الباطن يُخيّلُ إليَّ ذلك.

ملمس يدها فوق جبيني نبّهني، فتحت عينيَّ فوجدتها واقفة بجواري، بادلتني حديثًا مختصرًا وهي تهمُّ بمغادرة الغرفة، وما إن اقتربت من الباب حتى التفتت نحوي، وقالت:

-الليلة هي الأخيرة التي سترقدين فيها بالسرير، بعدها سوف تستطيعين الحركة.

ثم انصرفت وأغلقت الباب خلفها، نظرت إلى أمي، وأنا أنتظر منها تعقيبًا على كلمات انتصار لي، لكنها لم تعقّب سوى بكلمتين، حينها نظرت لي، وقالت:

-بنت حلال.

الشمس ساطعة جدًا في الصباح، أشعتها التي اخترقت زجاج النافذة وملأت الغرفة أيقظتني، رأيت أمي جالسة فوق سجادة الصلاة، يبدو أنها ظلت جالسة هكذا بعد ركعتيّ الضحى، لمّا رأتني أقوم من السرير قامت لتساعدني، لكني وجدت لديَّ القدرة على القيام دون مساعدة، لقد اندمل جرح بطني الذي سلبني قوتي لثلاثة أيام متتالية، تابعت سيري حتى باب الغرفة بحذر خوفًا أن يفاجأني الألم، نعم شعرت ببعض الألم، لكنه ليس بالقدر الذي يمنعني من السير، تذكَّرت كلمات انتصار لي قبل أن تغادر الغرفة ليلة أمس، أصابتني بالحيرة، لكنها سبقتني بهذه التجربة من قبل، ربما استطاعت السير بعد ثلاثة أيام، لذلك توقّعت أن ذلك سوف يحدث معي أيضًا.

خرجتُ مِنَ الغرفة وسِرتُ في الممر، أول ما قابلني هو باب غرفة انتصار، كان مغلقًا فوقفتُ أمامه، طرقته وانتظرت كي تجيبني لكني لم أسمع صوتًا بالداخل، أمسكت بمقبض الباب، وأدرته كي ينفتح فوجدته مغلقًا بالمفتاح، قلتُ ربما ذهبت إلى الحضّانة كي تجلس إلى طفلها.

لم تكن مغادرتي الغرفة بمجرد أن استطعت السير لتفقد غرفة انتصار، بل كان السبب اشتياقي لرؤية طفلي، تابعت السير عبر الممر، كانت الغرف على الجانبين خالية كما رأيتها، وأنا فوق النّقالة تحت تأثير المخدّر، إلا من غرفتين كل منهما كان بها حالة ولادة جديدة، حينها تعجبت من ذلك الصخب، والصرخات التي أسمعها بعد منتصف الليل، إذا كان الممر هادئًا في الصباح، فمن الأولى أن يكون أكثر هدوءًا في الليل.

في نهاية الممر وجدت باب الحضّانة، دخلت متلهفة، قرأت الأسماء المكتوبة فوق سرير كل طفل، كان كل طفل مكتوب فوقه اسم أمه، بحثت حتى وجدت اسمي، فوقفت أتأمل ملامح طفلي، كان يشبهني إلى حد كبير.

قضيت معظم النهار بجانب طفلي ولم أجد أثرًا لانتصار، حتى جاءت أمي تناديني، مشيت بجانبها في الممر حتى الغرفة، كانت غرفة انتصار موصدة كعادتها، فظننا للمرة الثانية أنها ربما غادرت المستشفى، ونسيت أن تخبرنا قبل مغادرتها.

أيقظتني الصرخات ودبيب الأقدام في الممر، تلك المرة كانت لدي القدرة على القيام، مشيت في ظلام الغرفة ولم أقم بإنارتها كي لا تستيقظ أمي، فتحت الباب برفق ونظرت في الممر، كانت انتصار تجري مكشوفة الرأس وهي تصرخ، تتخبط بجسدها في جدران الممر، هالني ما رأيت فجريت خلفها،

تجاوزت الممر وانحدرت يمينًا نحو السلم فتبعتها، لكن ما إن انحدرْت نحو السلم حتى وجدته خاليًا بعد أن انقطعت الصرخات ودبيب الأقدام عنده، أكملت نزول درجات السلم حتى الباب الخارجي، علّني أجدها بالأسفل، لكن كان المكان خاليًا إلا من حارس أمن وبعض ممرضات نوبتجية الليل.

صعدتُ السلم مرة أخرى، في طريقي إلى غرفتي نظرت إلى باب الحضّانة فوجدته مغلقًا، أكملت سيري في الممر، وقفتُ أمام باب غرفة انتصار، أدرت مقبضه فلم ينفتح، يا إلهي، كيف يكون الباب مغلقًا من الداخل، وقد رأيتها تجري أمام عينيَّ في الممر؟!

دخلت إلى غرفتي التي لازالت مظلمة، لكن ضوء الممر كان قد كسر العتمة قليلًا، اقتربت من السرير لكني تجمدت في مكاني، أصابتني عاصفة ثلجية كان مصدرها قلبي الذي يرتجف، شخصت عيناي على الأرض بجوار السرير، حينما رأيت الرأس الذي يحمل ملامح انتصار، كان ينظر لي بعينيه المضيئتين كعينيّ قط تلمعان في الظلام.

غادرت الغرفة بعد أن نهشني الخوف، لم أكن أعلم لأين أهرب، لكنني بمجرد أن خرجت إلى الممر تجمدت في مكاني مرة أخرى، وأصابتني عاصفة ثلجية أكثر زمهريرًا من التي سبقتها، لقد كان الرأس ينتظرني في الممر، أمام باب غرفة انتصار.

اليد التي أمسكت بكتفي من الخلف أصابتني برعشة كادت تسقطني أرضًا، نظرت خلفي فرأيت أمي، قالت:

-لماذا تقفين هكذا؟

لم تكن لديَّ إجابة، فقلتُ:

-ربما بعض الملل.

قضيت الليلة مستيقظة، كلما حاولت النوم راودني الخوف وافترستني هواجسي، لكن أمي حملها بِساط النوم سريعًا، جلست فوق سريري، وأنا أنظر للنافذة التي تطل على مساحة شاسعة من الظلام وأشجار الكافور، وظللت هكذا أقتسم مع الغرفة ظلامها وسكونها، أختلس النظر بين الحين والآخر إلى الأرض بجوار السرير، أتأهب للفرار إذا فاجأني الرأس مرة أخرى، لكن شيئًا لم يحدث.

استيقظت أمي مع أذان الفجر الأول، أضاءت نور الغرفة فعدّلت من جلستي، سألتني عن سبب استيقاظي، فلم أرد أن أخبرها بشيء أيضًا، لكني اكتفيت بأن قلت لها:

-ربما لأننا سنغادر اليوم.

أشرقت الشمس وجاءتنا ممرضة الصباح مبتسمة، ألقت علينا تحيتها المعتادة، ثم قالت لي:

-لقد صرَّح لكِ الطبيب بالخروج الليلة، وطفلك بحالة جيدة وسوف يخرج معكِ.

شكرتها، ولم تنس أمي أن تبادلها الأحاديث كعادتها كلما جاءت إلى الغرفة، إلى أن قالت لها أمي:

-أين انتصار؟ لم تظهر اليوم، أودُّ أن أودِّعها قبل أن نغادر.

انطفأت ابتسامة الممرضة، وقالت:

-من انتصار؟

قالت أمي بعفوية:

-انتصار، الحالة التي في الغرفة المجاورة.

نظرت الممرضة إلى أمي في دهشة ممتزجة بالخوف، وقالت:

-كيف عرفتِ أنه كانت توجد حالة في الغرفة المجاورة اسمها انتصار؟

تعجبت أمي من حديثها، فقالت:

-إنها تزورنا كل ليلة، وتجلس معنا.

صفعت الممرضة صدرها بيدها، وقالت:

-أعوذ بالله من الشيطان، ماذا تقولين؟

صمتت أمي ولم تعقّب، وأصابني الصمت مثلما أَصابها، فأردفت الممرضة:

-انتصار كانت حالة ولادة هنا في العنبر، حينما نُقِلَ القسم إلى هنا، بعد ثلاثة أيام من ولادتها سمعنا صرخاتها في الغرفة، اقتربنا من الغرفة فرأينا الدخان يتسلل خارجها من أسفل الباب، بعد أن فتحنا الباب رأينا النار تشتعل بالغرفة، ثم دبَّ الرعب في العنبر حينما خرجت انتصار تهرول في الممر والنار مشتعلة بها، ثم انحدرت نحو السلم، وهناك كانت النار قد قضت عليها تمامًا، فسقطت تلفظ أنفاسها الأخيرة فوق درجات السلم.

كنا نستمع في صمت وذهول، نظرت إلينا، وقد شحب لون وجهها وأردفت:

-لقد التهمت النار طفلها أيضًا، تم إيداعهم مشرحة المستشفى لحين إصدار تصريح الدفن، لم تتوصل التحقيقات إلى سبب النار التي اشتعلت في غرفتهم، لكن هناك من قالوا أنها كانت تعاني مرضًا نفسيًّا، لقد حاولت الانتحار كثيرًا بحسب أقوالهم، ربما هي من أشعلت النار في الغرفة تحت تأثير المرض، ومنذ ذلك الحين والغرفة مغلقة، ولم يتم إزالة آثار الحادث منها.

واصلنا الصمت، فأردفت:

-ثم بدأنا نتلقى الشكاوى من حالات العنبر حول سماعهم لصرخات تُسمَعُ في الممر ليلًا، وسماعهم لصوت أقدام تهرول، لقد أرجعنا السبب إلى أن المبنى يقع في نهاية المستشفى، وتم تجديده بعد فترة طويلة ظل مهجورًا فيها، لكنكم أول من يقول أنه رأى انتصار.

قامت أمي، وجمعت أغراضنا في الحقيبة، وقالت بنبرة متوترة:

-سنغادر الآن.

قامت الممرضة، وقالت:

-لابد أن يصرّح طبيب الأطفال بخروج الطفل من الحضّانة، لكنه سيأتي في الليل، حينها تستطيعان المغادرة.

جلست أمي تستعيذ طوال اليوم، بعد أن عرفت ما حدث لانتصار، لقد عرفت الآن لماذا لم تأتِ انتصار إلا في الليل، ولماذا كانت غرفتها موصدة دائمًا، ولماذا كانت تسير وكأنها لم تحمل جرحًا في بطنها، ولماذا كانت تتجاهلها الممرضة دائمًا، لأنها طوال الليالي الماضية لم يكن لها وجود حقيقي، ولماذا كان الرأس الذي رأيته يحمل ملامحها، والأهم من ذلك، عرفت لماذا اختفت حينما انحدرت ناحية السلم بعد أن كانت تجري وهي

تتخبط في جدران الممر، قالت الممرضة إن روحها قد فاضت على السلم، لذلك اختفت من أمام عيني هناك، وكأنها كانت تريد أن تخبرني بما حلّ بها.

لم أشعر بالخوف مثل أمي، كنت أشعر بالعطف تجاه هذه المسكينة التي أشعلت النار في نفسها وطفلها تحت تأثير مرضها النفسي، إذا كان تفسيرهم للحادث صحيحًا، لو تأتي الآن فأبوح لها بما أشعر به تجاهها، لقلت لها إني فهمت ما كانت تود أن تخبرني به، إني أشعر بما تشعر به الآن.

لم نخرج إلا في العاشرة مساءً، حينما حملت الممرضة طفلي من الحضّانة إلى غرفتي، احتضنته للمرة الأولى، بعد أن قبّلته أمي، حملته فوق يدي وخرجت من الغرفة، وخرجت أمي خلفي وهي تجر الحقيبة التي بها أغراضنا، أغلقت الممرضة نور الغرفة والباب خلفنا، وسارت بجانبنا حتى نهاية الممر.

أثناء انحدارنا ناحية السلم نظرتُ إلى الممر، كانت انتصار هناك، تقف أمام باب غرفتها، لها نفس الرأس الذي كان يظهر لي في الغرفة بجوار السرير، تحمل طفلها، وتنظر نحونا في صمت.

***

الدَّينوم

نبّهني عمّي كثيرًا ألا أسير وحيدًا في الليل، وأخبرني أن القرية تنام مبكّرًا، وأن عليَّ أن أعود إلى المنزل قبل أن تغلق الأبواب، ولا يبقى في الطرقات سوى الكلاب الضالة.

كنت أتظاهر باهتمامي بتنبيهاته الحازمة، لكن في داخلي كنت أسخر من حديثه الذي يوليه اهتمامًا كبيرًا، وأسأل نفسي: هل يخشى عليّ من الكلاب التي تنام في الطرقات؟

ولم أكن من المقيمين الدائمين في القرية، فقط أزورها على فترات متباعدة، لذا لم أكن على دراية بأشياء كثيرة عن عاداتهم، إن المناطق الريفية تقدّس النوم المبكر، ولأني لم أجرب هذه العادات من قبل فكنت أسبب لهم إزعاجًا كبيرًا، في الحقيقة لم يخبرني أحد بذلك، ولم يكن من الصعب أن أفهم من تلقاء نفسي، فأنا دائمًا ما أسبب لهم إزعاجًا عند عودتي المتأخرة، أتسبب في إيقاظهم من سباتهم في منتصف الليل كي يفتحوا لي

باب البيت، ثم أواصل استيقاظي حتى الفجر، وبعدها أنام بشكل متواصل حتى الظهيرة.

لقد كانوا يتحدثون عنّي دائمًا وكأني مختلف، كنت أسمع تلك العبارة والتي لازالت ترن في أذني حتى الآن: "أنت ابن البندر، لن تستطيع أن تتحمل عاداتنا."

لقد كنت صغيرًا لم أكمل الثانية عشر عامًا، وبما أني كنت أقضي هناك أيامًا من الأجازات الدراسية فكان الأمر بالنسبة لي أشبه بالتنزّه، لذلك لم ألتفت إلى عاداتهم وقيودهم.

لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً بعد، ولكني أشعر دائمًا حينما أسير في ذلك الوقت أن لا أحد يسكن القرية، أقطع دائمًا المسافة التي تفصل مابين بيت عمي الذي أمكث فيه وبيت عمّي الآخر، تحيط بي البيوت الصامتة وكأنها قبور مغلقة على ساكنيها، لا صوت يصدر ولا ضوء ينبعث، إلا بعض المنازل القليلة التي يترك أصحابها إضاءة مداخلها الشاحبة؛ لتؤنس تعيسي الحظ الذين يمرّون في وقت متأخر، ولكني لم أقابل ذات يوم تعيس حظ غيري.

كل ليلة، يصرُّ أبناء عمي على مرافقتي حتى بيت عمي الذي أمكث فيه، ولكنّي كنت أرفض أن يرافقني أحد، وأغادر مسرعًا حتى لا يتمادوا في إصرارهم، ربما يفعلون ذلك لأني غريب عن

القرية لا يعرفني أحد، ولكني ظننت أنهم يرونني صغيرًا، لذلك كنت أهرب دائمًا من أن يوصلني أحد.

لم أنس دائمًا أن ألتفت وأختلس النظر إلى البيت بمجرد أن أبتعد قليلًا، وكان الغريب أنهم يقفون كل مرة لمتابعتي حتى أتجاوز الشارع.

اعتدت أن أبطئ خطواتي بمجرد أن أدخل الشارع حيث البيت الذي أمكث فيه، أسير بمحاذاة السور الحديدي لجنينة اليوسفي، لا أتجاوزه حتى أكون قد قطفت حبّة أو اثنتين من أفرع الأشجار التي تتدلى بثمارها من فوق سور الجنينة القصير، ثم أتجاوزه لأسير بين صفّين من البيوت الصامتة.

لم أجد الطريق مخيفًا ذات يوم، ربما كان الصمت الذي يطغى على القرية بعد أن ينتهي الناس من صلاة العشاء هو الذي يبعث ذلك الشعور لديهم، لكن هذه الشوارع الخاوية سوف تدبُّ فيها الحياة قبل الفجر، بمجرد أن تُفتَح أبواب البيوت ويخرج الناس بماشيتهم متجهين إلى حقولهم، حينها ينتهي الصمت، وتستيقظ الكلاب النائمة على جانبي الطريق على مقربة من بيت عمي الذي أمكث فيه، والتي دائمًا ما تستيقظ حينما تشعر بي أسير ببطء شديد، تنبح بكل ما أوتيت من قوة على ذلك الغريب الذي يخترق العادات، ويسير وحيدًا في الليل.

ما إن تبدأ الكلاب في النباح حتى تضيء نافذة بيت عمي المطلة على الشارع، ثم أراه يخرج من البيت ليقف على حافة الطريق ممسكًا بعصا غليظة دائمًا ما يحتفظ بها خلف باب البيت، وبدلًا من أن ينظر ناحيتي، كان ينظر إلى الناحية الأخرى!

ذلك المشهد الذي يتكرر كل ليلة أصبح معتادًا، ولكنّي لم أكفّ عن سؤال دائم أوجّهه إليه دون أن أحصل على إجابة..

-كل ليلة تخرج حاملًا عصاك عند سماعك النباح، هل تتوقع أن تهاجمني الكلاب؟

لكنه دائمًا ما يتجاهل سؤالي المتكرر، ثم يقول وهو يواصل النظر إلى الناحية الأخرى من الطريق:

-لا شيء من هذا القبيل، فقط ادخل البيت.

أظل مستيقظًا فوق الأريكة الملاصقة للنافذة التي تطل على الشارع، يصلني صوت نباح الكلاب بوضوح، أختلس النظر بين الحين والآخر من فراغات شيش النافذة فلا أرى شيئًا، أفتح النافذة قليلًا دون أن يشعر بي أحد لأرى على من تنبح الكلاب، ولكني أجد الطريق خاوية، ونباح الكلاب يشتد وهي تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق، حيث كان ينظر عمّي.

وأنتبه إلى إصرار أبناء عمّي على اصطحابي إلى هنا، ووقوفهم أمام البيت يرقبون خروجي من الشارع، وحينما أصل إلى هنا

متأخرًا يخرج عمّي بمجرد أن يسمع نباح الكلاب، ثم أراه لا ينظر إليها وينظر إلى الناحية الأخرى من الطريق، القصة ليست الكلاب إذًا...

في شتاء قارس، وليلة باردة جمّدت كل شيء، جلست برفقة أبناء عمّي أمام البيت، نلتف حول راكية ينبعث منها الدفء، يسرد كل منّا المواقف الطريفة التي مرّ بها، نظرتُ في ساعتي فوجدتها تقترب من منتصف الليل، قمت من جلستي وانتعلت حذائي، لكن تلك المرة رأيت لديهم إصرارًا شديدًا بأن أمكث الليلة هنا، استجبت لرغبتهم بعد إلحاح طويل، أطفأنا الراكية ودخلنا إلى البيت، كان الطابق الأرضي به عديد من الغرف، تضيئها لمبات صفراء شاحبة اللون، اخترت أن أقضي الليلة في الغرفة المطلة على الشارع، فوق سرير يلتصق بالجدار الذي فيه النافذة، بينما يستلقي ابن عم لي على السرير المقابل، والآخرون تفرّقوا في الغرف الأخرى، لازال الحديث بينهم مستمرًا، حتى صاح فيهم عمّي الذي استيقظ قائلًا:

-اخفضوا أصواتكم، كي لا يسمعكم "الدَّينوم" إذا مرّ بالقرب من هنا.

وانخفضت أصواتهم فلم أسمع بعد ذلك إلا الصمت، الذي يتخلله نقيق الضفادع بين الحين والآخر، كدت أنفجر ضحكًا، إن عمي يخيف أبناءه بذكر أسطورة أسمعها للمرة الأولى، كما

كانوا يخيفون الأطفال عندنا بحكايات الغول والأشكيف، وما أثار دهشتي هو الصمت الذي لازمهم بمجرد أن سمعوا كلمة "الدَّينوم"، لو أني مكانهم، وقال لي أحد أن الغول قادم لضحكت ساخرًا منه، كان من الممكن أن يجدي ذلك معنا ونحن صغار، أما ونحن تتراوح أعمارنا بين العاشرة والرابعة عشر، فلا يجب أن ترهبنا تلك الخرافات.

استيقظت في الصباح متأخرًا، ولم أكن لأستيقظ لولا شعاع الشمس الذي تسلل من بين فراغات شيش النافذة وتسلّط على عيني، نهضت من السرير وخرجت من الغرفة، نظرت في الغرف المجاورة فوجدتها خاوية، جلست أمام البيت في انتظار أحد، لابد أن عمي قد أيقظهم في الصباح الباكر؛ كي يصطحبهم لمساعدته في ري الحقل، بعد وقت طويل قضيته جالسًا تحت أشعة الشمس، لمحت أبناء عمي قادمين من الطريق الزراعي الذي يوصل بين القرية والحقول، وما إن وصلوا حتى أخبرتهم بأني سأذهب إلى بيت عمي الذي أمكث فيه، فقرر أحدهم اصطحابي إلى هناك فلم أعترض، ربما لأننا في الصباح ولا أحد سيقول إني خائف أن أسير وحدي ليلًا.

مشينا، وما إن تجاوزنا الشارع وانحدرنا إلى الطريق الأسفلتي أمام جنينة اليوسفي، قلت له:

-ما هو الدَّينوم؟

وقف ابن عمي متجهّمًا، ظل ينظر حوله، ثم قال بصوت خافت:

-لماذا تذكر هذا الاسم الآن؟

الخوف الذي رأيته على وجهه جعلني أضحك، وأنا أجيب على سؤاله بسؤال آخر:

-هل تصدق هذه الخرافات؟

قال وهو يتلفّت حوله:

-ليست خرافات، ألم تر كيف تنام القرية بعد العشاء عن بكرة أبيها، ولا أحد يخرج من بيته؟

قلت بشيء يتفق مع المنطق:

-ليست هذه القرية فقط، كثير من القرى تنام عن بكرة أبيها بعد العشاء.

توقّف فجأة، وهو يجيبني:

-بل تمام هذه القرية مجبرة بعد العشاء.

أسكتتني إجابته ولهجته الجادة، لم أرغب في أن أستفسر عن السبب، ولا عن هوية الدَّينوم، ولكنّي اكتفيت بسؤال واحد:

-هل الدَّينوم هو من يتسبب في أن تنام القرية مبكرًا؟

وبكلمة واحدة أجابني:

-نعم.

كنا قد وصلنا إلى بيت عمي الذي أمكث فيه، أراد أن يعود فطلبت منه الانتظار، إن للحديث بقيّة ولابد أن أعرفها، وبالفعل استجاب إلى طلبي، دخلنا إلى البيت وجلسنا فوق الأريكة الملاصقة للنافذة المطلة على الشارع، قصصت عليه ما يفعل عمّي كل ليلة بمجرد أن يسمع نباح الكلاب، وخروجه حاملًا عصاه الغليظة، وتجاهله للكلاب التي تنبح، وتصويب نظره إلى الناحية الأخرى من الطريق، فقال تعقيبًا على ما سمع:

-إن الحكاية كلها هاهنا، فالدَّينوم يعيش هناك.

نظرت إليه صامتًا، كيف تصبح الخرافات حقيقة عند البعض، حتى الكائنات الأسطورية التي بها تعيش ولها مناطق خاصة يخشون الاقتراب منها.

لمّا طال صمتي، سألني:

-فيما تفكر؟ هل تظن أن ما أقوله خرافة؟

ابتسمت، وقلت:

-فقط ماذا تقصد بأن الحكاية كلها هاهنا، وأن الدَّينوم يعيش هناك.

فقال موضّحًا:

-ربما تظن أننا كنا نرغب في اصطحابك إلى هنا كل ليلة لأننا نخشى عليك من السير ليلًا كي لا تهاجمك الكلاب، والحقيقة أن الكلاب لا تمثل خطرًا على أحد هنا حتى لو نبحت عليه، ونزولًا على رغبتك في عدم اصطحابك كنا نظل واقفين حتى تنحدر من الشارع إلى الطريق، ثم نذهب مسرعين ونحن نحمل العصا الغليظة حتى آخر الشارع، نتبعك أيضًا حتى يخرج عمّك كي يُدخلك البيت.

لقد صدمني ما سمعته، لقد كانوا يصطحبونني إلى هنا دون أن أعلم، ولكن يبدو أن الأمر أبعد مما أفكر فيه، فطلبت منه أن يكمل فقال:

-أن تعلم أن بيت عمك هذا يقع في نهاية القرية، وتعلم أن المقابر تقع على مقربة منه، إن الدَّينوم يسكنها، يخرج كي يجوب القرية مساءً، حتى إذا وجد أحدًا يسير وحيدًا قام باختطافه؛ ليأخذه معه إلى المقابر، ثم بعد ذلك لا يظهر له أثر.

قلت منفعلًا:

-هذه خرافات.

قال، وقد أزعجته عبارتي:

-ليست خرافات، لقد اختفى كثير من أهل القرية ولم يتم العثور عليهم، وآخر ما قاموا به هو أن كلًا منهم كان يسير وحيدًا في الليل.

قلت في محاولة لتهدئة انفعاله:

-وما هو هذا الدَّينوم؟

-غول يا ابن عمي، نصفه الأعلى كالبشر، لكن أقدامه كأقدام الماعز، وله ذيل يلامس الأرض.

لم أجد تعقيبًا على ما يقول فآثرت الصمت، ولم يكمل أكثر من ذلك، ثم طلب الانصراف بعد أن أخبرني أنهم سوف ينتظرونني اليوم، وأنهم لن يتركوني أعود وحيدًا في الليل بعد ذلك.

جلست أتأمل هذه الحكاية الغريبة، لقد سمعت عن عديد من القصص المماثلة، ولكنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن قصّة كهذه، يصدّقها الناس هنا كما لو كانت حقيقة فعلًا.

ولم أتفاجأ حين دخل عمّي، وقال:

-اسمع، عليك أن تعود قبل العشاء أو تترك أبناء عمك يصطحبونك حتى باب البيت، وإذا لم تفعل فعليك أن تظل هناك حتى الصباح.

قلت، وأنا أكتم ضحكتي:

-وهل إذا اصطحبني أبناء عمي إلى هنا سوف أنجو من الدَّينوم؟

قال بعد أن زفر زفرة طويلة:

-هناك من يقول إن الدَّينوم لايهاجم أكثر من شخص يسيرون معًا، وأنه يخشى من الشخص الذي يحمل عصا غليظة.

قلت وأنا أتكىء على بعض التناقض في حديثه:

-إذًا فلماذا كل هذا الذعر، فيمكن لكل شخص أن يحمل عصا غليظة، وألا يسير أحد بمفرده، هنا ستنتهي هذه المشكلة، وبما أن الأمر هكذا، فلِمَا لايجتمع أهل القرية ثم يقومون باقتحام المقابر وقتل هذا الدَّينوم؟

قال مقاطعًا حديثي:

-كل هذه أقوال تحتمل الصواب والخطأ، فهناك ثلاثة أشخاص اختفوا من القرية في ليلة واحدة، ولم يعرف أحد إذا ما كانوا يسيرون مجتمعين أم كان كل منهم بمفرده، وذات ليلة اختفى شخص وعرفنا بعد ذلك أنه أخذ عصاه الغليظة قبل أن

يخرج من البيت، ولكننا نتمسك بكل شيء يمكنه أن يجعلنا في مأمن من هذا الدَّينوم.

ثم أردف بعد لحظات من الصمت:

-ثم من الذي أخبرك أننا لم نقم باقتحام المقابر لقتله، لقد قمنا بذلك كثيرًا، ولكننا لم نجد شيئًا.

ثم خطر ببالي سؤال مفاجئ، فقلت:

-هل قمتم باقتحامها نهارًا أم ليلًا؟

أجابني، ويبدو أن سؤالي قد أربكه:

-كان ذلك في النهار، أنت تعلم أن لا أحد يخرج ليلًا من بيته، ولن يوافق أحد على دخول المقابر ليلًا.

حتى الآن لا أعرف لماذا يصدّقون هذه الخرافات، ولم أجد سبيلًا في تغيير قناعاتهم، ربما لو قاموا باقتحام المقابر ليلًا، ولم يجدوا شيئًا سوف تنتهي هذه الخرافة، وربما إن صدقوا وكان موجودًا فعلًا قاموا بقتله وتستريح القرية، ربما كان اختفاء عديد من الأشخاص دون معرفة سبب اختفائهم قد جعلهم يظنون أن كائنًا خرافيًّا قام باختطافهم، إن عدم معرفة سبب المشكلة يُسهّل من أمر اقتناعهم بالخرافة، لماذا لا يفكّرون بطريقة أخرى؟!

فربما قاموا بالهرب لسبب ما، فلم يسبق أن تمّ العثور على أثر لمن اختفى، سواء ملابسه أو بقايا من أشلائه في حالة افترسه هذا الدّينوم.

عدت إلى القرية بعد أشهر طويلة، في شتاء قارس أيضًا، وجدت القرية كما هي، على ما تركتها عليه، تنام بعد العِشاء عن بكرة أبيها، كنت قد نسيت كل شيء ونسيت قصّة الدَّينوم، غادرت بيت عمي الذي أمكث فيه إلى بيت عمّي الآخر لأقضي اليوم هناك، تذكّرت وصيّة عمي بأن أظل هناك حتى الصباح ولا أعود وحيدًا في الليل، قمت بتنفيذ وصيته، ولكنّي استيقظت ليلًا فوجدتهم نيامًا، قتلني الملل فخرجت أمام البيت، كانت الساعة في يدي تشير إلى الواحدة صباحًا، الأمطار الخفيفة جعلتني أرغب في السير عبر الشوارع الصامتة، تجوّلت كثيرًا دون أن يحدث شيء، ثم اتجهت إلى الطريق حيث جنينة اليوسفي، قطفت من ثمار الأشجار المتدلية فوق الطريق وتابعت سيري باتجاه بيت عمي الذي أمكث فيه، حينها وجدت عم "العراقي" جار عمّي يجلس بالقرب من عمود الإنارة على جانب الطريق، عرفته قبل أن أَصل إليه، إنه صاحب البيت المقابل لبيت عمّي، ثم صاح بصوته الجهور الذي أعرفه:

-لماذا تسير في الليل؟ أنت تعرف أنه لابد أن تنام القرية مبكرًا.

ضحكت، وأعدت عليه نفس السؤال:

-لماذا تجلس هنا، ولم تنم مبكرًا؟

مشينا معًا في الطريق، ظل يذّكرني بأيام طفولتي، وكيف كنت ألعب مع أبنائه كلما أتيت إلى القرية، لقد كان يذكر أشياء كثيرة سقطت من ذاكرتي، أعرف أن أهل القرى الذين لايعانون صخب المدينة تظل حواسهم في يقظة دائمة، صرت أستمع إليه وأتذكر كل التفاصيل التي يقصّها عليّ، حتى اقتربنا من البيت.

لم تنبح الكلاب في تلك المرة كعادتها، لقد هرولت بمجرد أن اقتربنا، عرفت أن عمي لن يستيقظ هذه المرة على نباح الكلاب، وعليَّ أن أطرق باب البيت بشدة كي يسمعني.

وقفت بجانب الراكية التي تركها عمي مشتعلة أمام البيت، لم تخمد الأمطار الخفيفة نيرانها بعد، انتظرت أن يدخل إلى بيته فلم يفعل، ظل يسرد تفاصيل كثيرة لا أعرف من أين أتى بها، حتى أني لم أتذكر الكثير منها، مما اضطرني إلى الجلوس فوق جذع النخلة الذي جعل منه عمي أريكة يجلس عليها أمام البيت، دعوته للجلوس فاستجاب إلى طلبي، ولكنه جلس بعيدًا عن الراكية.

قلت له:

-لماذا لا تقترب من الراكية؟ البرد قارس.

قال ضاحكًا:

-أنت مازلت صغيرًا، وتحتاج إلى الدفء.

ظل صامتًا ينظر إليّ، ويبدو أن رصيده من التفاصيل التي يتذكرها عن طفولتي قد نفذ، ولم يجد شيئًا آخر كي يقصّه عليّ، أصابني الملل، فقلت:

-ألن تذهب إلى النوم؟! ساعات قليلة وستستيقظ القرية وسيكون عليك الذهاب إلى حقلك.

وأدهشتني إجابته، حين قال:

-بل أنا ذاهب الآن.

قلت بدهشة:

-أنت الوحيد في هذه القرية الذي لايخاف هذه الخرافة، بالرغم من أن حقلك يقع خلف المقابر وأن عليك المرور منها، وأنت تعلم أن الدَّينوم يسكن هناك.

قال وهو ينهض:

-إذًا فلابد أن تصطحبني إلى هناك، سوف نسير معًا، لن نتأخر في العودة.

لا أعرف لماذا ترددت في قبول طلبه، ربما لأني لست من هواة الذهاب إلى الحقول، أصررت على رفضي، وأدهشني إصراره على اصطحابي معه حتى انقلبت لهجته إلى لهجة غاضبة، ولأني لم أعتد الرد بصوت مرتفع على من يكبرني سنًّا أصررت على رفضي بطريقة مهذبة، وقف ينظر إليَّ ولا أعرف كيف تحول لون وجهه إلى الأحمر من أثر الغضب رغم الصقيع، حتى أنه ركل حجرًا قريبًا منه بقدمه قبل أن يتركني ويغادر، ولا أعرف من أين أتى بتلك القوة التي جعلته يطيح بحجر كبير كهذا بركلة من قدمه.

غادر باتجاه المقابر، لكنه لم يبتعد قليلًا حتى وقف ينظر إليَّ، وما إن ابتعد حتى عادت الكلاب التي هرولت واختبأت إلى مكانها وأخذت تنبح، حينها واصل سيره باتجاه المقابر حيث حقله، وما إن أمعنت النظر في قدميه اللتين تظهران مع خطواته أسفل الجلباب حتى رأيتهما قدمي ماعز، يتدلى من بينهما ذيل يلامس الأسفلت.

أضاءت النافذة وقام عمي بفتح الباب فدخلت، عنّفني كثيرًا على عودتي في مثل هذا الوقت قائلًا:

-عليك أن تعرف أنك لن تسلم في كل مرة.

جلست فوق الأريكة أسفل النافذة، أترقب الطريق من بين فراغات الشيش بين الحين والآخر، كانت الكلاب نائمة كما هي، ظللت هكذا حتى سمعت الأذان الأول للفجر، حينها استيقظت القرية، بدأت البيوت تفتح أبوابها ويخرج أصحابها إلى الحقول، وما أثار انتباهي، أني رأيت عم "العراقي" يخرج للتو ممسكًا ببقرته، ويتجه إلى حقله!

***

ترامبولين

مُمدَّدًا فوق سريري، أملأ صدري بالهواء عبر شهيق عميق، أُقنع نفسي أنَّ جسدي نائم وعقلي مُستيقظٌ، استرخيت بقدر ما أستطيع، أغمضتُ عيني وافترضتُ أنَّ عقلي مساحةٌ بُرتقالية اللون، وأنَّ جسدي مساحة داكنةُ الزُّرقة.

لم أنجح في هذه التجربة من قبل، كنت أشعر برعشة في جسدي، وبتنميلٍ يسري في أطرافي، إلا أنّني لم أمنح نفسي فرصة كي أعبر تلك النقطة إلى التي تليها، كان الخوف يُطاردني، كيف يمكنني العودة إلى جسدي مرة أخرى إذا حدث وانفصلتُ عنه؟

حاولت تركيز طاقتي على تلك المساحة البرتقالية؛ كي أمنح عقلي فرصة ليطغى على جسدي المادي، كنت أرى مساحة الجسد داكنة الزُّرقة ضئيلة جدًّا، نفضتُ عن ذهني كل الأفكار التي تواردت عليه، ليس هُناك فرصة لأي شيء سوى أن أمنحَ

جسدي الأثيري إذنًا بالخروج من قيود جسدي؛ ليحلّق في عوالم أخرى، ويظل متصلًا بجسدي الماديِّ عبر ما يُسمّى ب"الخيط الفضيّ".

الرعشة تنهش جسدي، أحسستُ بطرقات على مقدّمة رأسي، وبصوتٍ يهمسُ في أذني قائلًا:

-دَع جَسدك الأثيري يهيم في الملكوت، إنَّه لم يُخلق ليُسجَن داخلك.

إنَّها المرَّة الأولى التي أقرِّرُ فيها أن أُكملَ هذه التجربة؛ لقد استسلمتُ لفضولي، ولرغبتي في التمتع بحرّية لم أجرّبها من قبل، أبقيتُ عيني مغمضةً، وتخيَّلتُ نفسي مُمسكًا بحبلٍ يتدلّى من السماء، ورأيت نَفسي أتأرجح معه كريشة طائر، لحظتها تلاشى كل شيء من حولي، أحسستُ أن جزءً منّي ينفصل، وأنني أرى ما حولي رغم أن عيناي مُغلقتان، أيقنتُ أن جسدي الأثيري يحاول الانفكاك من جسدي المادي، ولكن سرعان ما انتصر جسدي المادي فعدتُ إلى يقظتي؛ لتفشلَ التجربة مرةً أخرى.

عزمتُ ألا أعيدَ المحاولة مرة أخرى، خرجتُ من المنزل كي أتجوَّل في شوارع المدينة، تُصيبني الشوارع المزدحمة بالضَّجر؛ لذلك كنتُ أقصدُ الشوارع الهادئة، في شارع قريب من المنزل يخلو من العابرين أبطأتُ من خطواتي، إنها المرة الأولى التي

ألاحظ فيها أن أغلب المنازل في هذا الشارع خالية من أصحابها، وقفتُ أمام منزل قديم، أمامه مساحة يحيط بها سور أبيض، بها بعض الأشجار الصغيرة التي نفضت أوراقها، لا أعرف لماذا جذب ذلك المنزل انتباهي، دقَّقت في كل شيء يحيط بالمنزل حتى لمحت "ترامبولين" قديمًا أكله الصَّدأ، لكنه يبدو بحالة جيّدة وصالحًا للاستخدام.

قفزتُ من فوق السور الذي لم يتجاوز قامتي، مشيتُ فوق العُشب الذابل حتى وصلت إليه، صعدتُ فوقه فوجدتُ أنَّه لازال يعمل بكفاءة، قفزتُ في الهواء وتركت جسدي للجاذبية كي تعيده؛ ليقذفني الترامبولين مرة أخرى لمسافة أعلى، ظللتُ أتأرجح، في كل مرة كنتُ أبلغُ مسافة أكثر ارتفاعًا من التي سبقتها، حتى تركتُ جسدي يهوى في تلك المرة بطريقة جعلتني أسقط على ظهري، وصرتُ أتأرجح حتى هدأت تمامًا، واستعاد الترامبولين سكونه، أحسست باسترخاء عميق، وبالهواء البارد المتسلل إلى رئتي يعيد إليَّ توازني، لماذا لا أعيد التجربة هنا ولو لمرَّة واحدة؟

أبقيت جسدي ساكنًا، استلقيت على ظهري تمامًا مباعدًا بين قدميَّ قليلًا وفاتحًا ذراعيَّ بجانبي، فأصبحت على هيئة نجمة ينقصها أن تضيء فقط، أغمضتُ عيني، وأطلقت سراح عقلي مرةً أخرى لتكون له اليد العُليا، ردَّدتُ في نفسي:

-عقلي مُستيقظٌ، وجسدي نائم.

أعدتُ تكرارها مرارًا حتى عاودني تنميل الأطراف، وسَرَتِ الرّعشة في كل خلية من جسدي، شعرتُ بثقلٍ في رأسي، استسلمتُ لذلك الشعور الذي لم يحضرني بهذه القوة من قبل، أحسستُ بشيء ينفصل عن جسدي، راودني شبح الفشل مرة أخرى فردَّدتُ "عقلي مُستيقظٌ، وجسدي نائم"، واستسلمتُ أكثر من ذي قبل.

أراني الآن مُستلقيًا على ظهري فوق الترامبولين، تبدو هيئتي من الأعلى كنجمة؛ لقد نجحتُ، الآن أحلِّقُ بجسدي الأثيري تاركًا جسدي المادي في عالمه الضيق؛ لاحظتُ أن جسدي تحيط به هالة زرقاء، إنه من المُدهش أن ترى نفسك من خلال روحك، ترى ما لا يمكنك رؤيته بجسدك المحدود.

تركتُ جسدي راقدًا ونظرتُ إلى الأعلى، تبدو السماء بلون بنفسجي؛ ليس هناك غلاف جوي أنظر إلى السماء من خلاله، فعلمتُ أن كل ما يمنعنا عن رؤية الأشياء على هيئتها الطبيعية قد تلاشى.

لقد اكتسبتُ مهارةً جديدة؛ لم يعد يمكنني السير فقط، بل أستطيع التَّحليق أيضًا، أوَّلُ ما فعلته هو أني تجوَّلتُ فوق المدينة، هالات زرقاء تحيط بكل من رأيتهم، إلا أنَّني لاحظت

أمرًا غريبًا، هُناك مخلوقات تشبه العناكب إلى حد كبير، تضيء أجسادها باللون الأزرق ولها عينان حمراوين، تقتربُ من العابرين لتلتهمَ الهالات الزرقاء التي تحيط بهم، يا إلهي! هناك مخلوقات غير مرئية لنا تتغذى على طاقتنا، حتى أن من يفتقد القدرة على تجديد طاقته تبهتُ الهالة الزرقاء من حوله، وتنقلب إلى اللون الأصفر، هل هذه هي الطاقة السلبية التي تتمكن منّا؟ ربما.

يا إلهي! لقد وقع حادث انقلاب سيارة للتّو، اقتربتُ كي أرى ماذا أصاب السائق، وجدته غارقًا في دمائه مُصابًا بجروح بالغة، لم يُفارق الحياة بعد؛ لكن يبدو أنه قد دخل في غيبوبة جرّاء انقلاب سيارته، لم يكن صَّعبًا أن أعرف أن جسده لم تفارق روحه بعد؛ لقد استطعتُ أن أشعر بوجود الرّوح بداخله، أحسستُ بحرارتها تسري في خلاياه، ولكن سرعان ما وجدت ضوءً أبيض ينبعثُ من جسده، ثمَّ بدا وكأنَّه يتحوَّل إلى صورة مطابقة من السائق الغارق في دمائه؛ لم يكن الحادث قد نال منه بعد، لقد بدا سليمًا تمامًا خاليًا من الجروح.

لقد انفصلَ الجسد الأثيري للسائق جرّاء الحادث وظلَّ متصلًا به عبر خيط رفيع فضيّ اللون، ثم ارتفع جسد السائق الأثيري فوق الحادث، يبدو أنَّ وعي السائق لازال يعمل كما لو كان السائق يَقِظًا؛ لذا أراد أن يستكشف ما حدث.

لم تمضِ لحظات حتى وجدتُ الجسد الأثيري ينظر باتجاهي، رُبما شَعر بي، فالأرواح تَشعُر ببعضها البعض بكل تأكيد.

أخذت صافرةُ الإسعاف تَقترب بشكل تدريجي، حينها وجدتُ الجسد الأثيري يعود إلى جسد السائق مرةً أخرى، أحسستُ وكأنَّ الخيط الفضيّ الذي يربطه بجسد السائق يسحبه كي يعودَ، إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها الخيط الفضي، أو الخيط الأثيري، وهو يربط بين جسد مادي وجسده الأثيري، لكن لماذا لا أرى الخيط الأثيري الذي يربطني بجسدي؟

أنا الآن في مكانٍ بعيد تمامًا عن جسدي؛ لاحظتُ أنّي لا أنتقل من مكانٍ إلى آخر بشكل تقليدي، لا زمنَ هُناك ولا مسافات، بل بمجرد أن أفكّر في مكانٍ أجدُ نفسي قد ظهرتُ فيه في وقت ربما يكون هو اللا زمن.

ماذا لو فشلتُ في العودة إلى جسدي كما فشلتُ في التحليق بجسدي الأثيري من قبل كثيرًا؟

ربما أظلُّ هائمًا هكذا، أذهب من حين لآخر إلى جسدي الراقد لأطمئن أنه بخير، ولو فشلتُ في العودة قد تكون هي النهاية، سأحيا هكذا بروحي فقط، بينما يتحلل جسدي فوق

الترامبولين إذا لم يعثر عليه أحد، رُبما ما أنا فيه الآن هي الحياة التي يعيشها الأموات بعد مغادرة عالمنا الدنيوي.

مجرد التفكير في الأمر أرهبني، تذكرتُ إذا أردتُ العودة أن كل ما يجب عليَّ فعله هو: التفكير في الأمر، فكّرت في عودتي إلى جسدي مرة أخرى فلم يتغيَّر شيء؛ لا زلت هائمًا كما أنا، أتحسس جسدي بيدي فلا ألمس منه شيئًا.

باءت محاولاتي للعودة بالفشل؛ ولم يكن أمامي سوى أن أرغب في الانتقال إلى المكان الذي غادرت منه جسدي المادي، وبالفعل انتقلتُ إلى هناك، وما صدَمَني أنني وجدت الترامبولين خاليًا!

لم أعثر على جسدي، ربما عثر عليه أحد فنقله إلى مستشفى قريب، ظنًّا منه أنني فاقد الوعي، أو رُبما قد غادرتُ الحياة.

هل لي أن أبدأ رحلة بحث عن جسدي المفقود؟

راودتني تلك الفكرة لكنّي لم أدرِ ما المكان الذي يجب عليَّ أن أبحث فيه؛ لقد وجدت لديَّ القدرة على إعادة الوقت، كان الأمر أقرب إلى إعادة هدف في مباراة لكرة القدم، عُدتُ بالوقت إلى تلك اللحظات التي تجاوزت فيها سور البيت وعثرت على الترامبولين، كُنت أتوقّع أن أرى نفسي، ثم أتتبع ما حدث بعد أن

حلَّقت بجسدي الأثيري كي أعرف أين ذهب جسدي المادي؛ ولكنّي لم أرَ نفسي.

في ذلك الوقت، كان هناك أطفال صغار يتقافزون فوق الترامبولين، ثم بعد دقائق قاموا بترك الترامبولين عائدين إلى البيت.

ظلَّ الترامبلوين خاليًا؛ لاحظتُ حينها أن هيئة الترامبولين لازالت جديدة؛ لم تكن بهيئتها القديمة حينما عثرت عليه، فأدركتُ أنّي عُدت إلى المكان، ولكن في زمنٍ آخر.

أين يمكن أن أجد نفسي الآن؟

أنا بيتوتي جدًا؛ لذلك لم يكن من الصعب أن أفكّر في ذهابي إلى البيت، وجدتُ نفسي هناك بمجرد أن خطر المكان على ذهني، كنتُ جالسًا على مكتبي، أتصفح كتاب "على حافة العالم الأثيري".

أذكر أنَّي كنتُ أجلس هكذا منذ أكثر من عشر سنوات مضت، حينما بدأت فكرة الانفكاك من جسدي المادي تراودني، حاولت العودة إلى جسدي الذي رأيته أمامي؛ ولكن باءت المحاولة بالفشل.

كان من الطبيعي أن أفشل، فقد انفصلت بجسدي الأثيري في وقت مختلف عن الوقت الذي أنا عليه الآن، وفي مكان آخر

غير الذي أتواجد فيه الآن، غير أن الذي يجلس أمامي الآن جسدي وهو في حالة يقظة، أي أن جسدي الأثيري يكمن الآن داخل جسدي المادي الذي أراه.

لماذا تغيَّر الزمن فلم أستطع العودة؟ هكذا سألت نفسي، حينها انتقلتُ إلى مكان الحادث، حيث أخذت سيارة الإسعاف السائق المصاب، وراودني الخوف مرة أخرى أن أفشل في العودة إلى جسدي، أدركتُ حينها أنَّ مجرَّد التفكير في الفشل هو بمثابة فشل ذريـع، ربما ذلك الخوف هو ما أربكني فأربكَ الزمن من حولي، امتنعتُ عن خوفي، حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أتيقَّن من عودتي، أغمضتُ عيني وتخيَّلتُ جسدي الممدد على هيئة نجمة فوق الترامبولين، حينها تملَّكتني رعشة عنيفة، كتلك التي تملَّكتني حينما حاولت الانفكاك من جسدي، شعرتُ بأنّي مربوط في خيط رفيع يسحبني إلى الخلف، فعلمتُ أنَّ الخيط الأثيري الخاص بي يجذبني كي أعود من حيث أتيت، ثم وجدتني فوق ظهر طائر ضخم كثيف الشعر، يفرد جناحيه باتساع الأفق، يعبرُ بي مسافات طويلة؛ لقد اجتاز بي جبالًا وبحارًا وغابات، هل يُعقل أنّي قطعتُ كل هذه المسافات دون أن أشعر؟

أم أن العودة من الزمن الأثيري تكون هكذا دائمًا، أقرب ما تكون من المغامرة.

قبل أن أنتهي من سؤالي وجدتني أسقط من فوق ظهر الطائر، كنتُ أقترب من الأرض بسرعة بالغة، ثم وجدتني أسقط فوق الترامبولين متخذًا نفس هيئة جسدي، حتى سقطتُ بداخله، وإذا بي أستيقظ مفزوعًا وأنفاسي مرتفعة، وكأنّني عائد من سباق عدوٍ طويل.

لقد استرددتُ وعيي وجسدي، نزلتُ من فوق الترامبولين متجهًا نحو سور المنزل، قفزتُ خارجه ومشيتُ في الشارع الخالي من العابرين؛ لم أكن أصدق أنني نجحت للمرة الأولى في تجربة الإسقاط النجمي التي فشلت في تحقيقها كثيرًا، كنتُ أظنُّ أن أصعب ما في الأمر هو الانفكاك من جسدي المادي؛ لكني اكتشفت أن العودة إليه هي الأصعب، ولم أكن أدرك ذلك حتى عثرت على هذا الترامبولين.

***

البجامون

امنحوني فرصة كي أشرح لكم، أنا لا أخاف، ولكني أتظاهر بذلك كي أتفادى إلحاح أمي، ودائمًا ما أحمل صنارتي وأخرج بمجرد أن ينام البيت، أقضي جزءًا كبيرًا من الليل على شاطئ الترعة الكبيرة كي أصطاد السمك، وأعود قبل استيقاظهم.

الحكاية بدأت منذ سنوات طويلة، ربما قبل أن أولد، يحكيها الآباء لترهيب أطفالهم وإرغامهم على النوم، حتى أصبحت حقيقة يخشاها الآباء أيضًا.

قريتنا صغيرة جدًا، مجموعة من البيوت التي تطل على ترعة كبيرة، تحيط بها الحقول من كل مكان، إلا أنها تخلو من البشر ليلًا، فلا ترى إلا حيوانات الليل وهي تجول في الشوارع، ولتلك العادة قصة قديمة، جذورها ضاربة في تقاليد القرية، أما أنا فلا أومن بها ولا بمثل تلك الحكايات، لقد ظلت أمي تخيفني بها؛ كي أكف عن جلوسي على حافة الترعة ليلًا، حتى حدث ما حدث.

كنت عائدًا في منتصف الليل بعد أن انقضت ساعات في الجلوس على شاطئ الترعة دون أن أصطاد شيئًا، أسير بمحاذاة الترعة حتى أصل إلى بيتنا، إنه واحد من البيوت التي تطل على الشاطئ، بعد دقائق من السير لم أسمع فيها إلا صوت خطواتي الهادئة سمعت ما يشبه الوشوشات، يحدث ذلك كثيرًا دون أن أعير الأمر اهتمامًا، كانت تأتي من ماء الترعة، أهملتها في بادئ الأمر كما كنت أفعل دائمًا، ظننت أنه يُخيَّل إليَّ، أكملت سيري حتى دبَّ الرعب في أوصالي، تلك المرة عادت الوشوشات بالرغم من أنني ابتعدت عن المكان الذي سمعتها فيه، فشعرت بأنها تتبعني وتسير خلفي، وقفت ثم نظرت صوب الماء حتى رأيت طفلين يتحدثان، كانا يقفان في ماء الترعة الذي غمر النصف السفلي من جسديهما، وقفت أنظر إليهما في دهشة، ماذا يفعلان في الترعة في منتصف الليل؟

ثم وجدتهما ينتبهان إليَّ، التفتا نحوي وإذا بعيونهم تضئ كما لو كانت جمرات مشتعلة، سرت قشعريرة في جسدي ولم أقوَ على رفع قدميَّ اللتين التصقتا بالأرض، حاولت جاهدًا أن أغادر مكاني، مشيت ببطء، وكأني أحمل ثقل السماء فوق كتفي، بعد معاناة وصلت إلى البيت، فوجدت أمي بانتظاري، لقد كانت تشن حملات ليلية على غرفتي، وفي كثير من الأحيان تضبطني متلبسًا بالتجول ليلًا، ثم تجلس تنتظر عودتي لتوبّخني.

في تلك المرة جحظت عيناها بمجرد أن رأتني أدخل متسللًا من باب البيت، كان العرق يغرقني من منبت رأسي حتى أظافر أقدامي، صفعت صدرها بكفّيها، وهي تصيح:

-ما الذي جعلك تتعرّق هكذا؟!

لم أستطع أن أجيبها، كان الخوف يعتري ملامحي، يجيب بكل ما أوتي من وضوح عن سبب ذلك العرق، حتى أنها عرفت من تلقاء نفسها إجابة السؤال الذي طرحته منذ لحظات، حين قالت:

-هل رأيتهما؟

أومأت برأسي بالإيجاب أنني رأيتهما، وقلت:

-كنت أحسب أنها خرافة اعتاد أهل القرية على تداولها، لكنهما كانا متشابهين إلى حد كبير.

حاولت أن تهدئ من روعي، وهي تقول:

-يبدو أن الجامعة جعلتك لا تصدق إلا ما تراه عيناك.

جلست على الأريكة القريبة من الباب، وقلت:

-ما القصة؟

فجلست أمي بجانبي تسردها...

***

"قبل خمسة وعشرين عامًا"

القرية كانت كما هي الآن، البيوت والشوارع، لم يتغير إلا بعض الناس فقط، رحل من رحل وكبر من كبر وجاء إلى الحياة من جاء، كنت صغيرة لا أعرف شيئًا، حينها عرفت للمرة الأولى أن اسم قريتنا هو "البجامون"، هكذا قال أبي أمامي.

ثم عرفت سبب تسميتها بذلك الاسم، هناك عند أول القرية ترعة صغيرة تنشق عن الترعة الكبيرة، تبدأ من بوابة تُفتَح وتُغلَق، مهمتها تزويد القنوات التي تروي حقول قريتنا بالماء، ذلك المكان الذي تنبع منه الترعة الصغيرة كان يسمى: "البجامون"، لذلك أطلق نفس الاسم على قريتنا.

على مسافة تبتعد قليلًا عن قريتنا بيت "عبّاس الأحمر"، لم يقدر أحد من أهل القرية على الاقتراب من ذلك البيت، ليس لأنه كان وحيدًا في منطقة خالية، بل لأن صاحبه كان دجّالًا لا يرحم، بإمكانه إفساد أي شيء، لطالما كان يفرض على شباب القرية ما يشبه الإتاوة، من يرغب في الزواج عليه أن يذهب إليه لإرضائه وإلا أصابه بسحر الرَّبط، كان يفعل أشياء كثيرة لجمع المال، حتى جاء عام أسود...

لقد انخفض منسوب الماء في الترعة الكبيرة، أصبحت أقرب إلى طريق موحل، ماتت الأسماك بها وجفّت الترعة الصغيرة المنشقة عنها، فلم تستطع تزويد حقول القرية بالماء، لقد هلك الزرع، وكاد الناس والحيوانات يموتون عطشًا، ذهب أبي إلى عمدة القرية بعد أن جمع عددًا من الفلاحين، لقد اعتقد أبي أن "عبّاس الأحمر" هو من أصاب القرية بالسحر فأهلك الماء والسمك والزرع، وأنه لن يترك القرية إلا إذا قاموا بشراء رضوانه عليهم.

بدا على وجه عمدة القرية أنه مقتنع بما يقوله أبي، ثم بعد ذلك أجمعوا أن يذهبوا إلى بيت "عبّاس الأحمر" لاسترضائه.

كان الأحمر على علم بما حلّ بالقرية، والأكثر دهشة أنه كان على علم مسبق بأنهم سوف يذهبون إليه لنجدتهم، مما جعله يدخل دائرة اليقين أنه سبب ما يحدث في القرية، لقد صمت الجميع بما فيهم العمدة وتحدَّث أبي، لكن الدهشة ألجمته حينما قال الأحمر:

-إن هناك لعنة قد حلّت على القرية، ولن تنتهي إلا بالدماء.

قال أبي للأحمر:

-أي لعنة تقصد؟

قال الأحمر بلسان واثق:

-قبيلة من الجن المائي يزعجها أهل القرية، فقررت الانتقام بصبِّ لعنتها على قريتكم، وحبست عنكم الماء، وستظل تحبسه حتى يهلك كل شيء.

قال أبي تعقيبًا على ما سمعه:

-وكيف تنتهي تلك اللعنة؟

حينها وقف الأحمر، وقال:

-تنتهي بالدماء.

قال العمدة، وقد ظن أن لديه حلًّا:

-الأمر بسيط إذًا، سوف أذبح عشر بقرات في سبيل ذلك.

تجهّم وجه الأحمر، وقال بنبرة غاضبة:

-لن تنتهي اللعنة إلا بدماء بشرية، لابد أن يُذبح توءمان في البجامون.

أصاب الوجوم وجوه الجميع، لقد جعل الأحمر الدائرة تطبق عليهم، إما هلاك القرية عن بكرة أبيها، أو ارتكاب جريمة قتل بشعة.

اعترض الجميع على ما قاله الأحمر، إلا أنه لجأ إلى حلٍّ آخر، حينها طلب مبلغًا كبيرًا من المال، ثم أخبرهم أنه سوف يجد حلًّا لإنقاذ القرية.

اكتمل المبلغ المطلوب بسرعة، لقد دفع كل شخص في القرية بقدر استطاعته، ثم ذهبوا بالمبلغ إلى الأحمر الذي أخبرهم أن يتركوا المبلغ ويذهبوا إلى منازلهم، وأن كل شيء سوف يصبح على ما يُرام قريبًا.

بعدها عاشت القرية ثلاثة أيام عجاف، أشد قسوة من الأيام السابقة، حتى ظن الجميع أن الأحمر قد أخذ المال وقام بخداعهم، حتى صباح اليوم الرابع، استيقظت القرية فرأت الماء يملأ الترعة الكبيرة حتى آخرها، ويملأ الترعة الصغيرة ويصل إلى الحقول، سمعت أبي يقول:

-لقد صدق هذا الدَّجال.

لقد عاد بالفعل كل شيء إلى طبيعته، إلا أنه عاد بلعنة لم تكن موجودة، كان يظهر طفلان كل ليلة في ماء البجامون، عيناهما كالجمر المشتعل ينظران بغضب لكل من يقترب من الماء ليلًا، دبَّ الفزع في قلوب أهل القرية، لم يستطيعوا اتهام الأحمر بشيء خوفًا من سِحره، آثروا الصمت، ولكنهم قاموا

بالتشديد على أبنائهم بعدم الخروج، وباتوا يلزمون بيوتهم بمجرد أن يحل الليل.

ثم سمعنا عن اختفاء توءمين لرجل فقير في قرية تبعد عن قريتنا مسافة طويلة، ولم يذكر أحد قريتنا بشيء، لكن هناك من يقول إن هذين الطفلين ربما هما نفس التوءمين اللذين اختفيا.

منذ ذلك الحين والحياة تسير كما ترى، لم يستطع أحد أن يتحدث عن ذلك الأمر، حتى بعد موت عبّاس الأحمر؛ لقد ورث ابنه الدَّجل عنه، أصبح مثل أبيه وأكثر، يخشى الناس أن يتحدثوا في الأمر فيصل حديثهم إلى ابنه، فيسلّط عليهم ما يؤذيهم، لذلك مات ذلك الحدث مع الأيام، وأصبحت تلك اللعنة تعيش بيننا، هذا هو سبب عدم خروج أحد من القرية في الليل، لقد لقى عدد كبير حتفهم غرقًا في البجامون، ثم بعد استخراج جثثهم وجدوا آثار عنف على أجسادهم، والسبب الأرجح أن الطفلين وراء ذلك، ورغم ذلك لم يُثبَت حتى الآن إن كان الأحمر قد قام باختطاف التوءمين أم لا، لكن أهل القرية قاموا بتفسير ظهور الطفلين ليلًا في البجامون على أنهما توءما الرجل الفقير في القرية البعيدة، لا أحد يعرف أين الحقيقة، الحقيقة الوحيدة التي أعرفها ويعرفها أهل القرية جميعًا، ويجب عليك أن تعرفها أيضًا، أنك ستهلك في مرة تجلس فيها على شاطئ الترعة ليلًا.

حتى هنا انتهى حديث أمي، ثم تركتني ودخلت غرفتها، وجلست أفكر فيما سمعته للتو، ثم سألت نفسي، لماذا تخبرني بتفاصيل القصة بعد تلك السنين الطويلة، لماذا ظلت تطلب منّي عدم الخروج ليلًا دون أن تحكي لي شيئًا؟ وهل هناك أحد من القرية لازال يذكر كل تلك التفاصيل؟ وإن كان هناك من يذكرها هل قام بحكايتها لأبنائه لإعطائهم سببًا مقنعًا يمنعهم من الخروج ليلًا، أم أن خوف أمي من فقداني قد أجبرها أن تقصَّ عليَّ تلك الحادثة، وتضرب بخوفها من الأحمر وابنه عرض الحائط.

***

خمسة وعشرون عامًا على تلك الحادثة التي سردتها أمي، جعلتني أعيد النظر في أمور كثيرة، أول ما أعدت النظر فيه هو أن الخوف الذي يعتري القرية ليس من فراغ، ليس مجرد عادة اعتادتها، ولكن خوفهم من الحديث حولها جعلهم ينسون الحادثة دون أن ينزعوا قيدها الذي يحيط بمعصمهم، الأمر الثاني: أن هناك الكثيرين مثل أمي يعرفون ما جرى، لكنهم لم يمتلكوا من الشجاعة ما يمكنهم من ذكرها، والأمر الأهم، لو لم يكن أحد قد تحدَّث حولها من قبل، فلماذا أنا تحديدًا؟

أشعر وكأن عبء كشف الحقيقة قد أُلقِي فوق كاهلي، وأن القدر اختصني لتخليص القرية من ذلك الخوف.

في الليلة التالية، وكعادتي خرجت بعد أن نامت أمي، كانت الشوارع غارقة في صمتها الأزلي، لم أحمل صنارتي، تلك الليلة خرجت من البيت خفيفًا لا أحمل إلا ذلك العبء الثقيل، ولا أعرف لماذا سلكت الطريق المؤدية إلى بيت عباس الأحمر.

أنا أعرف البيت، لطالما عبرت من هناك أثناء اختصاري للطرق عند ذهابي لإحدى القرى المجاورة، أذكر أن البيت أصبح مهجورًا الآن، لقد غادره ابن عباس الأحمر، وانتقل إلى بيت كبير بعد أن جمع أموالًا طائلة من الشعوذة، ربما هي فرصتي كي أدخل البيت.

لم ألمح الطفلين في طريقي حين مررت بالقرب من البجامون، ولكني أسمع الوشوشات التي تظهر بمجرد مروري بالمكان، نظرت من حولي فلم أجد شيئًا، واصلت سيري حتى خرجت من القرية، وأصبح بيت عباس الأحمر على بعد دقائق من السير.

لا أعرف كيف اندفعت فأتيت إلى هنا، كان لابد أن أعرف ما يجب عليَّ فعله.

درت حول البيت الذي حال الظلام بيني وبين رؤيته بوضوح، بصعوبة تبيّنت مكان الباب، اقتربت في حذر، كنت على يقين أن البيت مهجور ولا يوجد أحد بالداخل، لكن رهبة

غريبة كانت تعصر قلبي فارتعشت أطرافي، اقتربت من الباب، وحاولت أن أدفعه لأعرف ما إن كان مغلقًا أم مفتوحًا، وما إن لمست الباب حتى سمعت الوشوشات تأتي من داخل البيت.

إنها نفس الوشوشات التي اعتدت سماعها كل ليلة بالقرب من البجامون، ولكني أسمعها الآن داخل البيت، لقد راودني شكٌّ أنني أهذي، ربما ما يحدث أكبر من قدرتي على الاستيعاب، وهذا يجعلني أتخيّل أشياء غير واقعية.

تراجعت للوراء وابتعدت عن الباب فتلاشت الوشوشات، وقفت قليلًا أنتظر سماعها مرة أخرى فلم تلتقطها أذناي، اقتربت مرة أخرى من الباب وحاولت دفعه فعادت الوشوشات، تمالكت أعصابي وحاولت النظر من ثقب مفتاح الباب، وقد هالني ما رأيت، عينان تشبهان عيني الطفلين اللذين رأيتهما، تشبهان الجمر المشتعل وتنظران نحوي، قاومت خوفي وبقيت في مكاني أنظر من ثقب الباب حتى رأيتهما تقتربان من الباب بينما يرتفع صوت الوشوشات، سقطت على ظهري فوق سلم البيت فانتهي بي الأمر إلى الشارع، قمت مهرولًا دون أن أنظر خلفي، ولم تتوقف خطواتي إلا أمام بيتنا.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أتجول في القرى المجاورة، متذكرًا ما حكته أمي حول ذلك الرجل الذى فقد توءميه، لا أعرف كيف أصل إليه، أو إن كان مازال على قيد الحياة أم غادرها، راودني

شعور أن الحكاية سوف تبدأ من هنا، لذلك بدأت رحلتي غير واضحة المعالم عبر مسار مبهم، أمعن النظر في ملامح كل من يقع تحت طائلة نظري ربما أجد ما يوصلني إلى ذلك الرجل.

أيام كثيرة مرّت، قضيتها في محاولات بحث لم تتوقف، كانت جولتي اليوم في قرية تبعد عن قريتنا بمسافة ليست هيّنة، صرخت أقدامي من قسوة السير فجلست على مقهى قريب من مسجد القرية، قضيت أغلب الوقت منتظرًا اللا شيء، لم أتوقف عن النظر في وجوه المارة، أكثر من جذب انتباهي هو ذلك الرجل الذي يسير حافي القدمين بجلباب ممزق، يبدو عليه أنه يعيش في الدنيا لكن لا علاقة تربطه بها.

نطلق على مثل هؤلاء أولياء الله، ولكن لا أعرف لماذا جذب انتباهي، راقبته طويلًا وهو يجلس بالقرب من المسجد، افترش التراب بجلبابه وأخذ يحفر بعصاه الأرض، بعد وقت طويل أنهى ما يفعله ثم قام، تابع سيره وانحدر إلى عطفة خلف المسجد، وجدت نفسي أغادر المقهى وأقترب من المكان الذي كان يجلس فيه، وهالني ما رأيت، لقد كان يحفر بالعصا صورة طفلين متشابهين.

على الفور حضرت صورة الطفلين أمامي، أسرعت إلى العطفة التي دخلها خلف المسجد، رأيته يجلس فوق درجات سلم لبيت قديم من طابق واحد، اقتربت منه وحاولت التحدّث

إليه، إلا أنه فرّ منّي إلى داخل البيت، لم أتردد في الدخول خلفه، إلا أني وجدته يلزم ركنًا ويجلس القرفصاء ينظر إليَّ في ذعر، لكن كان هناك شيء آخر أكثر دهشة من هذا الذعر الذي يتملّكه، لقد كانت الجدران تمتلئ برسوم مشابهة لتلك التي رسمها فوق الأرض، هل يمكن أن يكون هو والد الطفلين؟

لقد أذيع خبر اختفاء طفلين لرجل فقير من قرية مجاورة بعد تولّي عبّاس الأحمر مهمة إحضار القربان الذي سيقدّمه إلى قبيلة الجن، التي صبّت لعنتها على ماء الترعة الكبيرة بحسب ما زعم، وكادت القرية تفنى بما فيها، إن الرجل يبدو عليه الفقر بالفعل، لقد بدأ يراودني إحساس أنه قد فقد عقله بعد اختفاء طفليه.

عدت إلى القرية في اليوم التالي، بعد أن قضيت ليلة لم يغب فيها ذلك الرجل عن عيني، جلست على المقهى لأشرب كوب شاي، جاء الرجل وافترش الأرض في نفس المكان وأعاد رسم الطفلين، بعد أن انتهى تابع سيره وانحدر إلى العطفة التي يقع فيها بيته خلف المسجد، كان يجلس بالقرب منّي رجل كبير السن، ينفث دخان شيشته وينظر إلى ما يفعله الرجل وهو يحوقل، قمت باستغلال تلك الفرصة وقلت وأنا أنظر نحوه:

-مسكين ذلك الرجل.

قال، وهو يتابع نفث الدخان:

-منذ خمسة وعشرين عامًا، وهو هكذا.

لقد صعقني الرقم الذي قاله الرجل، إنه نفس عدد الأعوام التي حددتها أمي، وهي تسرد لي الحادثة، مما جعلني أبادره بسؤال آخر:

-ما الذي حدث لذلك الرجل؟

وضع الرجل مبسم الشيشة فوق الطاولة، والتفت بكامل جسده ناحيتي وقال:

-كان له طفلان يلعبان دائمًا بجوار المسجد، وكان هو يجلس أمامهما في هذا المقهى، حتى حدث ما حدث، لقد تفاجأ برجلين ملثّمين يختطفان طفليه بعد حلول المغرب، جرى خلفهما في محاولة لإنقاذهما، حتى قابله أحدهما بضربة بعصاه الغليظة فوق رأسه أفقدته الوعي، منذ ذلك الحين وقد ذهب عقله، لم يعد يتذكر سوى طفليه، ويرسم صورتهما كل يوم فوق الأرض في مكان اختطافهما، لقد توفّت زوجته من الصدمة، ولم يعد يفعل سوى رسم صورة طفليه فوق الأرض وجدران بيته.

قلت في محاولة للحصول على معلومات أخرى:

-وهل ظهر خبر عن الطفلين؟

قال الرجل، وهو يعتدل عائدًا إلى شيشته:

-حتى الآن، لا أحد يعرف عنهما شيئًا.

كان الظلام قد اشتدَّ، وأنا في طريق عودتي إلى البيت، حين اقتربت من البجامون سمعت الوشوشات، لكن تلك المرة كانت بصوت أعلى، لمحت بطرف عيني الطفلين بعينيهما الموقدتين كالجمر، تتوهجان في ظلام الترعة، تجاهلتهما وتابعت سيري، إلا أني أحسست أن الصوت لازال على نفس المسافة منّي، فعرفت دون أن أنظر أنهما يتبعاني.

دخلت البيت فوجدت أمي في انتظاري، وحتى لا أمنحها الفرصة لتسمعني محاضرة كل ليلة قلت لها:

-تذكرين تلك الحادثة، لقد حدثت قبل أن أولد، وربما وصلت اليوم إلى ذلك الرجل الذي اختفى طفلاه في قرية مجاورة، على الأرجح أنه والد الطفلين اللذين يظهران كل ليلة عند البجامون.

صفعت أمي صدرها بكفّيها قائلة:

-سوف تتسبب في موتي، لم يجرؤ أحد ممن شاهد الحادثة على الحديث فيها، ربما أنت الوحيد في القرية من الجيل الذي لم يعاصرها وأصبح يعرف بها، لقد أخبرتك حتى تكفّ عن شقّ قلبي نصفين من القلق عليك، حتى لا تحسب أن عدم خروجنا

في الليل مجرد عادة قديمة لا سبب لها، وبدلًا من أن تريحني وتبتعد عما تفعله تذهب إليه، نعم لقد مات عبّاس الأحمر، ولكن لا تنس أن ابنه موجود وقد ورث عنه السحر، حتى وإن انتقل إلى مكان آخر، إن وصل إليه خبر بأنك تبحث فيما فعله أبوه، فسوف ينتقم منك.

قلت مبتسمًا في محاولة للتهدئة من روعها:

-هل ستخبرين أحدًا بما أخبرتك به؟

قالت بانفعال شديد:

-مثل هؤلاء لديهم عيون في كل مكان، سوف يعرف لا محالة، وحتى إن لم يعرف، عليك أن تبتعد عن تلك اللعنة التي تسكن بالقرب من البجامون، ولا تنس أنهما السبب في غرق شباب كثيرين من القرية.

في الليلة التالية كنت أقف أمام بيت عباس الأحمر، اقتربت من باب البيت ونظرت من ثقب المفتاح، لم يكن هناك شيء سوى ظلام دامس لا تلمح فيه إصبعك إن وضعته أمام عينك، حتى تفاجأت بعيني الطفلين الحمراوين تظهران فجأة خلف الباب، سقطت فوق درجات السلم وانتهى بي الأمر في تراب الشارع مرة أخرى، لم أكن أنوي الاقتراب حتى سمعت الوشوشات تصدر من خلف الباب، لكنها كانت هادئة تلك

المرة، سمعتها بوضوح للمرة الأولى واستطعت فهمها، لقد بدا صوت الطفلين واضحًا وهما يقولان: "اقترب"، اقتربت ورعشة تكاد تلتهم جسدي، نظرت من ثقب الباب فإذا به يطل على المسجد المقابل للمقهي الذي كنت أجلس فيه، رأيت الطفلين يلعبان وقد بدأ النهار ينقشع ويفرض الليل سطوته على المشهد، حتى انتزعهما من الشارع رجلان بوجه ملثم، لقد هربا بالطفلين، ثم رأيت والدهما يهرول خلفهما في محاولة للحاق بطفليه، ما إن اقترب من أحدهما حتى وجّه له ضربة فوق رأسه بعصاه الغليظة، فسقط مغشيًّا عليه، بعدها أصبح حاله كما هو عليه حين رأيته.

لماذا أراني الطفلان ما حدث لهما ولوالدهما؟

لا زلت أنظر من ثقب باب البيت، كان كل ما رأيته قد اختفى، حتى عينا الطفلين قد اختفيتا أيضًا، لم يعد هناك سوى الظلام، شعرت أن الأمر لم يعد عابرًا، ربما يريدان منّي أن أفعل شيئًا، ولكن ماذا أفعل وقد مات عبّاس الأحمر، وغادر ابنه البيت إلى بيت آخر؟!

عدت أدراجي إلى البيت، وتعمّدت تلك المرة أن أبطئ من خطواتي أثناء مروري أمام البجامون، لم أسمع الوشوشات التي كانت ترافقني كل ليلة هنا، حتى وقفت تمامًا وأمعنت النظر في ظلام الترعة، التي بدت ساكنة وغير مخيفة على غير العادة.

كان لابد من أن أفعلها، ذات ليلة ذهبت إلى قرية الرجل، دخلت البيت بعد أن وجدت بابه مفتوحًا، عثرت عليه نائمًا في ركن البيت المقابل للباب، حاولت إيقاظه برفق إلا أن نوبة ذعر قد أصابته، بذلت قصارى جهدي كي يستعيد هدوءه؛ كي أقوم بمحاولة استدراجه إلى بيت عبّاس الأحمر، ربما يكون نقطة اتصال مع الطفلين؛ ولكن كيف أقوم بفعل ذلك، بدا على وجهه أنه لم يفهم حديثي، إلا أنه خطَّ بإصبعه فوق تراب الأرض، دققتُ فيما خطّه، كانتا كلمتين: "ماذا تريد؟"

لقد أدهشني أن الرجل لازال يستطيع الكتابة رغم فقدانه عقله، على الفور كتبت كلمة "توءماك" فوق تراب الأرض، أمعن النظر فيها كثيرًا ثم بكى، تركته حتى هدأ ثم كتبت فوق التراب: "أعرف مكانهما" ثم رسمت طريقًا ينتهي ببيت وأشرت إليه، فهزَّ رأسه بالإيجاب.

خرجت من البيت وهو يتبعني، كانت خطواته مرافقة لخطواتي، ثم خرجنا من القرية قاصدين قريتنا، قطعنا الطريق حتى وصلنا إلى بيت عبّاس الأحمر، اقتربتُ من باب البيت، بينما وقف ينظر في حذر، نظرت من ثقب الباب فإذا بعينيّ الطفلين الحمراوين تتوهجان في ظلام البيت، أشرت إليه بيدي فاقترب، نظر من ثقب الباب نظرة طويلة حتى أمسكت رعشة بجسده، أخذ يبكي حتى سقط منهارًا فوق درجات السلم، كدت ألحق به

إلا أن الصرخات التي انطلقت من داخل البيت جمّدتني، لقد بدأ الطفلان في الصراخ.

لقد استعاد الرجل وعيه من تلقاء نفسه، صعد درجات السلم واقترب من الباب، إلا أن تلك المرة أخذ يضرب الباب بكتفه، لم أستطع إيقافه، ظل يضربه بكل ما أوتي من قوة حتى حطّمه.

لم أستطع أن أمنع نفسي عن اللحاق به حينما اندفع داخل البيت، تبعته في الظلام دون أن يكون هناك مصدر ضوء نستعين به، كان كل ما أريده هو أن يقترب الرجل من البيت فقط، ربما يستطيع التواصل مع طفليه بطريقة ما، لكن فكرة اقتحام البيت لم تخطر لي على بال.

تجولنا داخل البيت حتى انكسرت العتمة قليلًا بعدما لاحت بوادر الصباح، بدأت ملامح المكان تظهر، أثاث قديم، أتربة تكسو ملامح كل شيء، حتى العنكبوت وجد ملاذًا آمنًا ليشيّد بيوته دون أن يعيقه شيء، ثم انتبهت إلى ثبات عين الرجل على باب صغير في نهاية البيت، أخذ يقترب منه، ثم ضربه بكتفه فحطّمه هو الآخر.

خلف الباب كان ينحدر سلمٌ ضيق للأسفل، نزل الرجل فتبعته، كان يوصل إلى بدروم صغير منخفض السقف، رغم

الظلام إلا أن المكان كان واضحًا إلى حدٍّ ما، عديد من الأغراض المهملة لسنوات، كل ذلك لم يكن غريبًا، الغريب هو شاهد القبر الذي يرقد في أقصى زاوية من البدروم.

بفأس قديم أمسك به الرجل قام بتحطيم القبر، لم تحتمل بنيته الهشّة الضربات فانهار سريعًا، ساعدته في إزالة الأنقاض التي سقطت، فانكشف الغطاء عن بقايا عظام لحيوانات، وجماجم بشرية تظهر بها ما يشبه الطلاسم، ثم رأيته يجثو على ركبتيه لينبش في ركن القبر أسفل الشاهد المحطم، ليستخرج هيكلين عظميين لطفلين، لازالت تلتصق بهما بقايا ملابسهما، التي كانت هي نفس ملابس الطفلين حين رأيتهما وأنا أنظر من ثقب الباب.

لقد اتضح لي أن الرجل لم ينس ملابس طفليه، لقد احتضن الهيكلين وقد أخذته نوبة بكاء هيستيرية، على إثرها أخذت الوشوشات في الظهور، سمعتها بوضوح تأتي من خلفي، نظر الرجل إلى حيث يأتي صوت الوشوشات ثم جَمُدَت عيناه فجأة وفغر فاه، دفعني الفضول فنظرت خلفي، لكن الصدمة أذهلتني.

كان الطفلان يقفان بعينيهما الحمراوين، يصدران وشوشاتهما التي شعرت بأن الرجل يفهمها، بدا الأمر أكثر أنهما يتحدثان إليه.

أظلمَ البدروم فجأة، حينها ظهر الرجلان وهما يقيدان الطفلين، ويضعان فوق أعينهما قماشًا أسود ليمنعهما من الرؤية، أمر عبّاس الأحمر ابنه بأن يحضر إناءً كبيرًا، قام الرجلان بتثبيت الطفلين فوقه، ثم مرّرَ عباس الأحمر سكينًا حادًا فوق عنقهما، فانتفضت الدماء منهما لتملأ الإناء.

ثم ألقي بجثة الطفلين من فتحة أعلى القبر بالقرب من الشاهد وتم إغلاقها، بينما أخذ عبّاس الأحمر يتمتم بتعاويذه فوق الدماء، التي حملها الرجلان، وألقيا بها في ماء البجامون.

لقد صعقني ما رأيت قبل أن يعود كل شيء إلى طبيعته مرة أخرى، لقد ذهب الطفلان ومعهما الوشوشات، ولم يعد هناك سوى الرجل والهيكلان، ثم انتبهنا إلى صوت أقدام تدبُّ أعلى سقف البدروم، هناك من دخل البيت ويحاول البحث عن شيء، ثم عرفت أنه ابن عبّاس الأحمر وبرفقته آخرون، كان يقول لهم:

-اعثروا على من حطّم الباب، عليكم البحث في كل ركن من البيت والبدروم.

قمتُ أنا والرجل بالاختباء خلف مجموعة من الكراكيب، ثم لمحت نافذةً محطّمة في الحائط تطلُّ على الشارع الخلفي

للبيت، قفزت من خلالها، وانتظرت أن يتبعني الرجل، لكنّه لم يفعل.

إلى أن ظهر ابن عباس الأحمر وبرفقته رجلان، كانت قامتهما قريبة حد التطابق من الرجلين اللذين قاما باختطاف الطفلين، صرخ الرجل وهو يخرج من مخبئه منقضًّا عليهم، فباغته أحدهم بطعنة أسقطته، ثم ألقى بالسكين فوق جسده الساكن.

لم تغادر الروح جسد الرجل الذي مازال يرغب في الانتقام، لقد نهض وهو يتحايل على الموت، أمسك بالسكين التي قاموا بطعنه بها، ولم يلحق إلا بابن عباس الأحمر، أصابه بطعنة في ظهره فأسقطه صريعًا، قبل أن يرديا الرجلان قتيلًا بعد أن فشلت محاولتهما الأولى.

لقد حاول الرجلان إنقاذ ابن عباس الأحمر الذي سال خيط دم من فمه وبرقت عيناه وخمد جسده، لكن الأمر كان قد انتهى تمامًا، لقد ألقى كلٌّ منهما بسكّينه أرضًا ليحملاه، إلى أنهما أسقطا جسده بمجرد أن رأيا السكاكين تتحرك وحدها أمامهما، لو نظرا خلفهما لرأيا الطفلين يقفان بعينيهما الحمراوين ينويان الانتقام، لقد عجز الرجلان عن الحركة وتجمّد جسديهما، كان الرعب يطل من عينيهما، وهما ينظران إلى السكاكين التي تقترب من

أعناقهما لتنحرهما ببطئ شديد، قبل أن يسقطا أرضًا وتغرق دماؤهما تراب البدروم.

أعاد الطفلان هيكليهما داخل القبر المحطم، ثم اختفيا، ظللت أنظر إلى البدروم من النافذة أنتظر حدوث شيء، لكن شيئًا لم يحدث.

أيام طويلة مرّت، لم يعلم أحد بما حدث، حتى خبر اختفاء ابن عباس الأحمر كان غريبًا، لقد أشيع أنه مات أثناء سفره بالخارج ودُفن هُناك، لا أعرف لماذا جاء الخبر هكذا، تعمدت الاقتراب من بيت عباس الأحمر خلسة كل يوم، أنظر من النافذة لأرى بعيني الجثث في أماكنها، كنت أنا الوحيد الذي يعرف كذب خبر وفاة ابن عباس الأحمر ودفنه بالخارج؛ لأنني رأيته يموت أمام عيني، ولازلت أرى جثته من النافذة كل يوم.

حتى تلك اللحظة لم يستطع أحد الاقتراب من البيت، لازال يبث الرهبة والخوف في نفوس الجميع كما يفعل منذ سنوات طويلة، حتى ذلك اليوم الذي اقتربت فيه من البيت، نظرت من الناذفة كعادتي فلم أجد الجثث في أماكنها، قمت بالالتفاف حول البيت فلم أجد الباب الذي تحطم، كان هناك باب آخر مكانه، فعلمت أن هناك من قام بإصلاح باب البيت ودفن الجثث، ودفن الحادثة معها.

طوال تلك الليالي التي كنت أتجول فيها ليلًا بالقرب من البجامون لم ألمح الوشوشات، ولم ألمح الطفلين بعينيهما الحمراوين يحدقان بي وأنا أعبر المكان الذي أُلقي بدمائهما فيه، كان الظلام ساكنًا، لكن القرية كانت أكثر سكونًا كعادتها ليلًا.

أنا على يقين الآن أن اللعنة قد انتهت، لم يرد الطفلان سوى الانتقام ممن قتلهما، وها هما قد فعلا، لقد غادر مرتكبو الجريمة الدنيا ولم يبق منهم أحد، وأعتقد أن ذلك ما كانا يريدانه.

تحملت مشاحنات أمي معي كل ليلة، لازالت تخشى عليَّ من الطفلين، تلطم صدرها بيديها كلما رأتني أعود متأخرًا إلى البيت، لكنّي لم أكن أتفوّه بكلمة.

إنني الوحيد الذي يعرف أن القرية قد تخلّصت من شبح اللعنة الذي طاردها منذ سنوات طويلة، أما القرية، لا زالت تمارس خوفها، ولا زالت أمي تواصل مشاحناتها معي.

***

الفهرست

ليلةٌ في عَرَقَة 6
عنبر الولادة 25
الدَّينوم 48
ترامبولين 65
البجامون 75

www.bibliomaniapublishing.com

2022